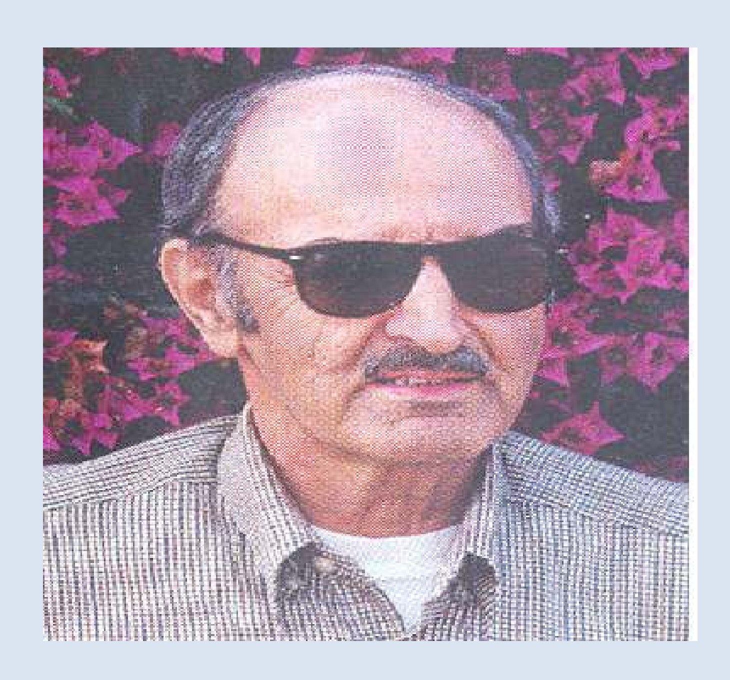
ⵉⵎⴰⴳⵔⴰⴷⵏ ⵏ ⵓⵎⴷⵢⴰⵣ, ⴰⵎⵣⵔⵉⵡⴰⵍ ⴷ ⵓⵎⵖⵏⴰⵙ ⴰⵎⴰⵣⵉⵖ

ⵉⴳⵍⵍⵉⵏ ⵏ ⴷⴷⴰ ⴰⵍⵉ ⴰⵣⴰⵢⴽⵓ

(ⵜⵢⵔⴰⵏⵜ ⴳⵔ ⵉⵙⴳⴳⵯⴰⵙⵏ ⵏ 1968 ⴷ 1986)

مقالات الشاعر، المؤرخ و المناضل الراحل علي صدقي أزايكو

(كتبت في ما بين سنوات 1968 و 1986)



ملحوظة: بالاضافة إلى مقالات ذ. أزايكو يوجد أيضا مقالين لأحمد الفحصي و هما عبارة عن ردود على مقالات أزايكو.

• الاصالة والعمق في العودة الى الثقافة الشعبية

• الادب البربري غني واصيل

• ميدان واسع لهواة البحث من شبابنا

اذا كانت الثقافة الشعبية قد اصبحت تحظى باهتمام الدول المتقدمة ، واذا كانت هذه الدول تعطى القيمة الكبرى حتى لبعض الثقافات المحدودة، واذا كان الفكر الانسانى فى عودة الى التراث الشعبى معتبرا اياه مصدرا هاما من مصادر الثقافة الانسانية ، ودرة ثمينة لا مجال لاهمالها نحو تحقيق العالمية المرتجاة والانسانية الشاملة ، اذا كان الامر كذلك فى بعض الدول المتقدمة فان الواقع عكس ذلك فى دول العالم الثالث على الخصوص . هذا امر طبيعى فى مثل هذه المرحلة الحاسمة التى تجتازها هذه الدول او بالاحرى هذه الشعوب ، انها مرحلة الانفتاح على العالم المتمدن عالم الالة والعلم ، مرحلة نفض الغبار ومع نفض الغبار تسقط اشياء ثمينة لم تدرك بعد قيمتها ، مرحلة الانعتاق من القيود البالية ، قيود التقاليد والخرافات والماضى — المظلم — ، كل هذا حسن نظريا ما دام الفكر الثورى «موضة» العصر هو الدافع الى كل هذا . ولكن المؤسف حقا هو ان هذا الفكر الثورى جارف جدا كثيرا ما يتصرف باللاوعى والاندفاع مما يجرده فعلا من كل صبغة ثورية حقيقية . وبذلك ياتى فى — الغالب — على الاخضر واليابس فيسق فى مكيال واحد الحب والحصى فيكتسبان قيمة واحدة اى ان الكل لا يعدو ان يكون حصى لاغير .

ان الناظر المتامل ليلاحظ كل هذا فى بلادنا المغربية العزيزة ، التى عرفت هذه المرحلة الحاسمة والتى بدات بقليل قبل الاستقلال واتخذت شكلا اعنف بعد الاستقلال ، حيث اصبح التعلق بالشرق شديدا الى حد العمى عند عدد كبير من المغاربة وخاصة العامة الشعبيين فى المدن والمثقفين باللغة العربية . بينما تعلق البعض الاخر بالغرب ، ولكن تعلق هؤلاء بالغرب لم يكن كشدته عند الاوائل بالشرق وبين هذه وتلك ضاع وطننا المسكين . او بعبارة اخرى فقد المغرب المرتبة الاولى التى يمتاز بها الوطن فى قلوب ابنائه حتى انه يمكن القول بان الوعى القومى فى هذه المرحلة لم يكن واضحا ولا ناضجا ، ولعل لكل ذلك اسبابا اجتماعية وسياسية وتاريخية واقتصادية بطبيعة الحال . ان مرتبة الوطن العاطفية حين تكون موضع مساومة لدليل فعلا على انهيار الوعى القومى عند شعب ما وتلك بداية واضحة للانحطاط الاجتماعى الشامل واضاعة لشخصية الامة ومقوماتها ، ومحو لاصالتها التى تكمن فى تراثها الشعبى .

وهكذا كانت الثقافة الشعبية المغربية من بين ضحايا التاثر الثقافى الزائد والغير الواعى بالشرق وبالغرب فكان ان ضاع منه الكثير بضياع اهله وهواته او بانكماشهم او بنفضهم ايديهم منه واخص هنا الادب الشعبى الكلاسيكى : ان صح هذا التعبير ، اذا اعتبرنا انه ببداية فترة الاستقلال تبدا فترة جديدة فى موضوعها وشكلها واهتماماتها.

واذا ذكرنا الادب الشعبى فى بلادنا فاول ما يحضر على البال هو الادب البربرى الذى تتسع رقعته فى المكان والزمان لتشمل جزاء هاما من بلادنا ولتمتد جذوره الى ماض عريق فى القدم ، فهو بالفعل احسن معبر عن مشاعر اغلبية ابناء هذه البلاد ، المشاعر الرقيقة التى يعبرون عنها بواسطة لغتهم البربرية ادق تعبير وارقه والمؤسف حقا هو هذا الاهمال الذى يلقاه هذا التراث الوطنى الهام من طرفى ابنائه مع ان غناه وغزارته وتنوعه شىء لا يناقش ولا يحتاج الى دليل ومن ان يلمس هذه الحقيقة فما عليه الا ان يتجول عبر القرى والبوادى ليجد فى كل قرية ومدشر شاعرا او شاعرة فاكثر ، وليجد فى نفس الوقت ان اهل القرية جميعهم مولعون بالشعر والغناء وبكل ماهو جميل منفنون واداب .

الا ان كل ذلك لا يمنعنى من القول بان المهتمين بالادب البربرى يقلون يوما بعد يوم ، ولذلك اسباب عديدة منها ما اشرت اليه سالفا اى طبيعة المرحلة الحالية التى لايزال مفعولها قويا فى البوادى والمدن المغربية .

ولئن كان بعض الشباب يحبون احساسا خفيفا باهمية هذا الجانب من ثقافتنا ، فان احساسهم هذا لم يتجاوز بعد صدورهم اى ان البادرة العملية لانقاذه وجمعه لم يظهر لها بعد

اقول هذا وفى بالى محاولة الاخ احمد امزال الذى جمع اشعارا مختلفة نظمها شعراء بربر ولحنوا بعضها وغنوها فى نفس الوقت انها محاولة عملية اولى لجمع الادب البربرى وتدوينه . وبهذه المناسبة لا يفوتنى ان اذكر بعض الملاحظات التى فرضت على نفسها وانا اتصفح هذا الديوان « امنار » .

1 — ان اخراج مثل هذا الكتاب محاولة جريئة فى حد ذاتها نظرا للحد الذى سيضعه بين فترة الصمت عن الادب البربرى واهماله وبين ما اسميه بالعودة اى الرجوع الى الاصالة الشعبية الكامنة فى ادبنا شعرا واسطورة وحكاية ...

وقد لوحظ فعلا انه احدث تساؤلات كثيرة ومتناقضة بين عدد من المغاربة ، كل وتفكيره ومستواه . فهناك من نظر اليه نظرة واقعية وطنية اى كمحاولة لجمع شتات الادب الشعبى فى هذه البلاد الغنية ، وهناك من القى عليه نظرة شزراء ومستغربة فى آن واحد ثم هنالك من لم يبال . وهذا النوع اللامبالى هو الكثير من بين ابناء بلادنا .

2 — وبما ان المحاولة اولى من نوعها فانها تضم بعض الاخطاء ليست ذات خطر اولها هو طريقة الكتابة التى استعملها الاخ احمد امزال هذه الطريقة ارى انها ليست عملية نظرا لصعوبة قراءتها حتى على الذين يتقنون البربرية ومرجع هذا هو قلة اهتمام الكاتب بفصل كل كلمة عن اختها فمثلا نجد انه كتب كلمة « ايان اور » هكذا « ايانور » « وكلمة » د ودى » هكذا « دودى » الى آخره .

وهناك هنات اخرى ترجع فيما اعتقد الى نقص فى الحروف المطبعية . مثل عدم وجود حرف « الكاف » وفوقه ثلاث نقاط وعدم وجود بعض الاصوات كالصوت الواقع بين الكاف والسين فى كلمة « اسكواس السنة . فقد كتبها هكذا اسكاس مع ان كتابتها بهذا الشكل سيؤدى حتما الى قراءتها خاطئة . ولكى تنطق هذه الكلمة وشبيهاتها نطقا صحيحا لابد من البحث عن اشارة تعبر عن الصوت المذكور .

ثم ان هناك حرفا اخرى مفخمة لاتوجد فى الحروف العربية العالية : مثل الزاى فى كلمة ازاير (الكوس) والراء فى كلمة « اراض « الطفل ..

3 — النقد الاخر الذى يمكن ان يوجه الى صاحب « امنار » هو عدم ذكره لاسماء الشعراء الذين نظموا القصائد الواردة فى الديوان مع علمنا انه وضع هذه القصائد . اللهم الا اذا كان لا يعرف من وضعها .

تلك نظرة سريعة القيتها على امنار الذى اعتبره مع كل ما سبق وثيقة هامة من وثائق ثقافتنا الشعبية التى ارجو ان تتبعها محاولات اخرى تكون اساس ونقطة انطلاق لمعرفة مجتمعنا والتعمق فى تفكيره وفلسفته والاحساس بعواطفه الحقيقية التى لا ابالغ اذا قلت انها من الاصالة والدقة بمكان. يعاب علينا تركها للاجانب يمضغونها فى غير فهم ولا ادراك .

ا. ا.

آلي ازايكو



بين ماهو عليه وما ينبغي أن يكون عليه

بقلم ص. علي أزيكو

- تاريخنا غير مكتوب

- كيف ينبغي أن يكتب تاريخنا؟

- مسؤولية المؤرخين المغاربة الشبان

منذ القرن التاسع عشر أصبح التاريخ يتجه اتجاها جديدا، وأصبحت قيمته تتجاوز مجرد كونه رواية أحداث وحكاية وقائع مجردة ، الى اعتباره **وسيلة لفهم الحاضر وتوجيهه ، اعتمادا على فهم وادراك واعيين للماضي،** وكلما اتسعت آفاق المعرفة كلما ثقل وزن قيمة التاريخ ووضح دوره الظاهروالخفى فى توجيه التقدم الفكرى والمجتمعى للمجموعات البشرية ، وهذا أكسبه مكانة لم تكن له من قبل وخاصة فى المجتمعات المتقدمة التى ارتبط فيها الوعى التاريخى بالتقدم الاجتماعى . فعصرنا هذا يمكن أن نطلق عليه عصر التاريخ الواعى ، وبذلك يتميز عن العصور السابقة التى كان فيها التاريخ حركة متطورة فى الماضى لم يستفد الانسان من وثاقة صلتها بالحاضر . غير أن درجة انتشار الوعى التاريخى - حتى فى عصرنا هذا - ليست متساوية . فهى فى بداية ظهورها فى المجتمعات التى تنتمى الى العالم الثالث ، وهذا من الاسباب التى أودت بعهد الاستعمار ، هذا الاستعمار الذى يمكن اعتباره من العوامل الموقظة لهذا الوعى التاريخى ، لانه وضع علامة استفهام كبرى عند احتكاكه بالمجتمعات التى استعمرها؛ ووضعت مسألة الاختلاف الكبير بين المستعمر (بكسر الميم) والمستعمر (بفتح الميم) موضوع نقاش ظهرت نتائجه التى تتلخص فى الاعجاب بالمستعمر وتقليده . الا ان هذا الاعجاب لم يكن مطلقا بل هو مرحلة فقط للوصول الى النتيجة العميقة للنقاش **وهى ادراك الشعوب المستعمرة لشخصيتها واختلافها العميق عن الشخصية الاوروبية.** ثم دفعها ادراكها لقيمة شخصيتها المتميزة الى المقاومة والمطالبة بالاستقلال أى المطالبة بحريتها فى توجيه شؤونها الوجهة التى تراها صالحة فى ظروف كظروفها وفى اطار تاريخى كالذى خلقها .

هناك سبب آخر لا ينبغى اهماله هو انتشار المدارس وازدياد أهمية التعليم يوما عن يوم . وليس أثر التعليم مقتصرا على كونه يمكن التلاميذ من تلقى دروس تاريخية من بين الدروس التى يتلقونها بل انه يمكنهم من الوسيلة التى تجعل أفقهم يتسع ومفاهيمهم تتأثر بالتيارات الفكرية العالمية عن طريق القراءة أو الاستماع أو المشاهدة .

ازاء هذه الحالة نجد أنفسنا مسؤولين أكثر من أى وقت مضى على **توجيه أفكار شبابنا الوجهة الصحيحة سواء على المستوى القومى أو الانسانى خصوصا اذا علمنا أن الكثير من الافكار المتسربة الى بلادنا والتى نمت فى مجتمعات تخالف مجتمعنا، لا يهضمها شبابنا هضما صحيحا بل يلتقاها بشكل أو بآخر ويفهمها بطريقة أو بأخرى دون أن يكون مستعدا - لا نفسيا ولا حضاريا - لفهمها على الاقل كما ارادها أصحابها**

أن تفهم بله أن يفهمها كما ينبغى أن تفهم ، انطلاقا من فهم كامل لمعطياتنا الاجتماعية والتاريخية .

وهكذا أصبح الاضطراب والبلبلة من الظواهر الملحوظة بين صفوف شبابنا .

الا أن مهمة التوجيه هذه تتطلب من الموجه نفسه أن يدرك الادراك كله جميع أبعاد مهمته ، وأن يحدد بوضوح موقعه فى الزمان والمكان ويتعرف على الاطار المجتمعى الذى سيكون ميدان عمله. **ومعنى هذا أننا فى حاجة الى من يدرك وضعيتنا ويفهم حاضرنا فهما عميقا حتى يكون انطلاقه مبنيا على أسس سليمة . وفهمنا لحاضرنا لا يتأتى الا بعد فهم عميق لماضينا الذى لايمكن بأية حال فصله عن هذا الحاضر .** فالتاريخ جزء من الحاضر ، والحوار أبدا لا ينتهى بين الماضى والحاضر « لا نستطيع أن نفهم جيدا قضية ما الا اذا تتبعنا تاريخها» أو كوست كانط .

فالتركيب الاجتماعى الحالى ليس الا نتيجة لمجموعة معقدة من العمليات التاريخية التى صنعها الانسان نفسه دون أن يحيط علما بجميع النتائج المحتملة لعمله ذاك . وفى هذا الصدد يقول ماركس «ان التاريخ لا يصنع شيئا ، فليس لديه ثروة طائلة. وهو لا يحارب أى معارك ، فالواقع ان الذى يفعل كل شىء هو الانسان الذى يحيى حقا والذى يملك والذى يحارب» .

فالدراسات التاريخية اذن هى الوسيلة التى ينبغى الالتجاء اليها لتحقيق هذا الغرض، أن تاريخنا كله أمجاد ، وأمجادنا جزء من أمجاد الانسانية ، وتاريخنا قطعة من تاريخ البشرية . فلن أكون مؤاخذا اذن اذا قلت : **ان عنايتنا يجب أن تنصب قبل كل شىء على دراسة تاريخنا القومى.** فنكون بذلك قد أدينا واجبنا تجاه وطننا أولا وتجاه الانسانية ثانيا . بل انه لا يمكن بحال أن نتهم بالاقليمية مغربيا اهتم بتاريخ منطقة بعينها دون غيرها . لانه بعمله ذاك يضع لبنة قد يضع الآخر أخرى لبناء شامل لتاريخنا الوطنى .

ان مشكلتنا الاولى هى اعادة كتابة تاريخنا ، لان الطريقة التى كتب بها غير سليمة ، ولان الظروف التى احاطت بكتابته ظروف خاصة حتمت كتابته بالشكل الذى هو عليه الآن ثم لانه أتانا من الخارج أى أن تاريخنا الذى نقرأه وندرسه ونتأثر به كتب بأيد أجنبية وبعقلية ليست كعقليتنا ولاهداف تخالف بل تناقض ما يراودنا من آمال وأهداف . **ان تاريخنا لم يكتب بعد ؛ واذا قلت**

تاريخنا فأعنى تاريخنا الطموح الباني الآمل ، الذى يعبر عن فلسفتنا ويضم أيضا آمالنا ، ويتخذ من الماضى أساسا لبناء الحاضر والمستقبل ، تاريخنا الذى ينبعث منا لا ليتجاوزنا ويمسخنا بل ليجيزنا ويبلور شخصيتنا . ان تاريخنا فسره لنا الاجانب فأصبحنا بذلك نرى أنفسنا بعيون غيرنا ونحاول أن نحقق فينا ما أوحى به الينا وقد أملى هذا الغير حسب وجهة نظره هو وطبقا لمشاربه.

قد يقول قائل : انك بكلامك هذا تنفى عن التاريخ موضوعيته ! وتريد منه أن يكون أدبا حماسيا يغنى الامجاد ، ويرقص اصداء الماضى ..

أما عن الموضوعية التاريخية ، فلست فى حاجة الى التذكير بأن التاريخ علم انسانى ، والعلوم الانسانية ليست بحال كالعلوم الطبيعية : الفيزياء مثلا . « لان التاريخ هو العلم بالاشياء التى لا تتكرر أبدا . فالاشياء التى يمكن تكرارها ، والتجارب التى يمكن اعادتها والملاحظات التى يعلو بعضها بعضا كل أولئك من شأن علم الفيزياء والى حد ما علم الاحياء». بول فاليرى خطبة فى التاريخ (1932) . «وهو تطور أحداث وحركة متطورة متقدمة منطلقة» كما قال ادوارد كار . ولو كانت هناك سنن ثابتة معروفة تتحكم فى سير التاريخ لا نحل المشكل ولما قيل فى هذا الموضوع كل ما قيل ، ولما اختلف اثنان فى تفسير حادثة تاريخية .

ثم ان التاريخ جزء من المؤرخ لا يمكن فصلهما، وهو «عملية مستمرة من التفاعل المتبادل بين المؤرخ ووقائعه» ادوارد كار ــ ما هو التاريخ.

وبما أن المؤرخ له وجهة نظره الخاصة وظروف اجتماعية وسياسية معينة، ومستوى ثقافى محدد وأهداف تفرضها عليه وضعيته التى تتأثر بكل ما ذكر ، فان ما يكتبه يكون مطبوعا بشخصيته وسيعبر عن وجهة **نظره ، وسيفسر الاحداث انطلاقا من معطيات شخصية ذاتية من صنع بيئته ووزنه كمؤرخ ... قبل أن ينطلق من المعطيات التاريخية المجردة .**

واذا كان التاريخ «سجلا لما رآه عصر يستحق الذكر فى عصر آخر» كما قال بور كار . فانه بالتالى **اختيار ارادى لاحداث يراها المؤرخ أهم من غيرها** . وهذا الاختيار ــ طبعا ــ يتأثر بشخصية المؤرخ ومشاربه واهدافه . وبما أن اختلاف المؤرخين فى شخصياتهم شيء واقع، فان التاريخ سيكون متعددا بتعدد المؤرخين. **وهكذا نصل الى أن التاريخ وجهة نظر ، وطريقة معينة فى تفسير الاحداث ، ومنهج خاص فى طريقة العمل والنفوذ الى أعماق الوقائع التاريخية .**

«ان أية شخصية أو حادثة أو أى مظهر من مظاهر الماضى الانسانى لا يكون تاريخيا الا اذا اعتبره المؤرخ كذلك واعتقده خليقا بالحفظ والبقاء»

H. I. Marrou التاريخ ومناهجه .

فالموضوعية التاريخية شيء نسبى، ومحاولة البحث عنها مرتبطة بالدوافع التى أدت بالمؤرخ الى الكتابة التاريخية، الا أن الشيء المحقق هو أنها لا تكون مطلقة مهما حاول المؤرخ ان يتجرد عن المؤثرات الذاتية عند محاولته الكتابة فى موضوع تاريخي معين. فـ «قبل أن تدرس التاريخ عليك بدراسة المؤرخ وقبل أن تدرس المؤرخ عليك بدراسة بيئته التاريخية والاجتماعية ، فالمؤرخ بوصفه فردا هو من نتاج التاريخ والمجتمع ، وعلى دراس التاريخ أن يتعلم النظر اليه على هدى هذا الضوء المزدوج» ادوارد كار ــ ما هو التاريخ ؟

اننى لا أريد أن يكون تاريخنا أناشيد حماسية كما أننى لا أريده أن يكون معاول تنهال على كياننا لتحطمه ، وسموما قاتلة تنخر مقوماتنا الاجتماعية العريقة ، وانما الذى أريده هو أن يكون انطلاقنا ابتداء من أنفسنا ، وأن يكتب تاريخنا بيد شبابنا وبروح مغربية صرفة .

وبذلك وحده سنحس عندما نقرأ تاريخنا بأنه قريب منا وبأنه فعلا سيساعدنا على فهم حاضرنا وبالتالى على التقدم والرقى .

من كتب تاريخنا ؟

ان تاريخنا كتب انطلاقا من وجهتى نظر مختلفتين ومتناقضتين وكلتاهما أجنبية عنا :

أولا : وجهة نظر أوربية ، وهذه فرضتها طبيعة احتكاكنا بالاوربيين وخاصة الفرنسيين ، طبيعة احتكاك شعب أوربى متقدم نسبيا بشعب افريقى متخلف . غاية الاول هى استغلال البلاد استغلالا كاملا واخضاع كل مقاومة وبكل الوسائل حتى لا تعرقل عملية الاستغلال هذه . وهذه الضرورة دفعته الى البحث عن الوسائل الناجعة لتحقيق ذلك الهدف. فتوصل الى أن السيطرة على وسط طبيعي أو بشري لابد من معرفته معرفة جيدة . لذلك أعد جيش هائل من الاختصاصيين فى جميع الميادين وخاصة فى التاريخ والاجتماع والدين ... فكانت النتيجة نجاح التجربة ولو من الناحية النظرية فقط ..

ان وجهة نظر كهذه لا ينتظر منها بعد كل ما ذكرنا من نسبية الموضوعية التاريخية ــ ان تكتب لنا تاريخنا كما نريده نحن أن يكون بل كما تريده طبيعة ظروفنا ومقوماتنا الاجتماعية والثقافية . انه تاريخ موجه له منطلقات معينة ويسعى لتحقيق أهداف محددة .

ثانيا : وجهة نظر شرقية : ان موقع بلادنا الجغرافى جعلها دوما منطقة صراع بين التيارات الشرقية والغربية . فموقعها على البحر المتوسط جعلها منفتحة على عالم نشيط منذ القدم : عالم حوض البحر المتوسط الذى احتضن أقدم الحضارات البشرية كما أن ارتباطها بافريقية له نتائج هامة على حركة عجلة تاريخها وعلى التركيب الاجتماعى لسكانها ... لذلك لا نستغرب هذا الصراع الحضارى الذى يتجاذب بلادنا عبر التاريخ . بيد أنه ينبغى الآن ان نتخذ موقف حاسم تجاه الصراع الذى لم يعد من صالحنا أن نتجنب الخوض فيه، وأن ننظر اليه نظرة من لا يهمه الامر .

ان وجهة النظر الشرقية هى أيضا لها نفس الاهداف وأن كانت الوسائل مختلفة ، ذلك لان طبيعة اتصالنا بالشرق لا تشبه سابقتها ، اذ حمل الينا الشرق دينا جديدا ، أصبح بعد مدة دين السكان ، لذلك أصبح الدفاع عنه وعن حامليه غاية مثلى .. فكان هدف الدفاع عن المقومات الجديدة وتثبيتها منطلقا للمؤرخين الشرقيين الذين كتبوا عن تاريخنا ، أو للمؤرخين المغاربة الذين تبنوا نفس الهدف ، فكان ذلك

سببا فى ابراز حقائق واهمال أخرى فى مدح اشياء والقدح فـى أخرى أو بكلمة أخرى: كانذلك توجيها جديدا لتاريخنا .

ومهما يكن فكل من وجهة النظر الاوربية ووجهة النظر الشرقية لها نتائج غير محمودة على تاريخنا الذى تمتد جذوره الى ما قبل مجىء الاسلام والاوربيين ، ونحـن كمجتمـع لسنا فروعا دون جذور ، بـل أن تفكيرنا وسلوكنا وشخصيتنا وقيمتنا لهـا ارتباط بماضينا البعيد كما ترتبط بماضينا القريب . واذا انطلقنا مـن هذا الاعتبار فـان السبيل الحتمى للوصول الى حل سليم للمسألة هو اعادة كتابة تاريخنا وتجريده مـن الافكار المغرضـة والحـرب النفيسة التـى يواجهنـا بها . هـذا العمـل الضرورى ينبغى أن يكون فى أسرع وقت ، لان الظروف الاجتماعية الحالية والمتميزة بانتشار التعليم ووسائـل الاعلام ساعدت على انتشار نتائـج تاريخ لم يكن لنا دخل فى كتابته . وبقيامنا بهذا العمل نكون قد اقتدينا بالدول الافريقية الاخرى التى بدأت تعيد النظر فى تراثها بصفة عامـة وتاريخها بصفة خاصة .

اننى لا أنكر أن هناك مؤرخيـن مغاربة خلفوا لنا مؤلفات تاريخيـة كثيرة . وانما قصدى أن جل هؤلاء من المؤرخين الذين يسجلون الاحداث دون محاولة تفسير مراميها وأسبابها ولا أنكر أن هناك محاولات جديـدة قام بها شبان مغاربة فى هذا الصدد غير أن هذه أيضا لم تظهر تحررهـا التام من أثر الاساتذة الاجانب الذين تعتبر تفسيراتهم لتاريخنا المرجع الوحيد .

ان مسؤولية المؤرخين المغاربـة الشبان مسؤولية كبيرة ، لانهم هم وحدهـم القادرون على القيام باعـادة كتابة تاريخ وطننا مـن وجهة نظر ثالثة وهى وجهة النظر القومية التى طالما انتظرها ليتجه اتجاهه الصحيح

باريس – ص – على أزيكو

التاريخ مع الامانة شاهد صدق ، ومع الخيانة شاهد باطل

م. ع.

مجلة الكلمة عدد1 فبراير 1971

من مشاكل البحث التاريخي فى المغرب

بقلم : علي ازيكو

« بما ان تاريخ المغرب هو تاريخ بواديه نفسه ، فاننا لانرى انه قد اغرى المؤرخين العرب . من يدرى اذا كان سيغرى غيرهم ؟ ذلك لانه يعانى من فقر كبير فى الوثائق »

جورج مارسى : Les Arabes en Berbérie

أتيت بهذه الفقرة لانها، فى اعتقادى تلخص لنا مشكلا من المشاكل الاساسية التى يعانى منها تاريخ المغرب ، ونعانى منها نحن المغاربة كافة تبحث لها عن الطريق الذى سيؤدى بها الى بناء مستقبل أفضل؛ وكشف يعتبر نتيجة العمليات المعقدة القريبة والبعيدة التى مر بها والتى تجمعها كلمة تطور أو كلمة تاريخ .

اذا حاولنا أن نجزىء هذه الفقرة فستكون كالآتى :

- تاريخ المغرب هو تاريخ بواديه
- كل ما كتبه العرب فى هذا الميدان لم يهتم بالبادية
- شك فى امكانية اهتمام غير العرب بها
- السبب : قلة الوثائق

سنحاول الآن أن نتعرف على قيمة كل فكرة من هذه الافكار ، ومدى صحة كل منها وانطباقها على واقعنا التاريخى .

تاريخ المغرب هو تاريخ بواديه : سأقتصر ، فيما آتى به من الامثلة ، على المغرب الاسلامى ، لان تاريخ المغرب الما قبل الاسلامى لا نكاد نجد له صدى عند المغاربة ، وذلك لاسباب لا مجال لذكرها الآن .

من المعلوم أن الحياة الحضرية ، بالمعنى المعروف لدينا الآن ، لم تكن ذات قيمة كبيرة فى المغرب قبيل الاسلام . ومعنى هذا ان المقاومة التى واجه بها سكان شمال افريقية عموما العرب كانت من طرف سكان البوادى أى الفلاحين ... ماذا عن البنية الاجتماعية لهؤلاء الفلاحين ، وعن الدوافع التى دفعتهم الى مقاومة العرب تلك المقاومة العنيفة ؟ أقل ما يمكن ان نتساءل عنه ، ومع ذلك، فلا جواب .

لنأخذ الامثلة الاكثر شهرة : المرابطون الذين ألقت بهم الينا بادية الجنوب ليخضعوا باقى المغرب والاندلس ... ماذا نعرف عن أسباب هذه القفزة الكبيرة من غمرة النسيان الى مسرح التاريخ ؟ لا أكثر من النادر الغير المؤكد .

الموحدون الذين ترعرعوا فى قلب الاطلس الكبير ، ليكونوا بعد ذلك أكبر أمبراطورية مغربية عرفتها شمال افريقية ... ما هى الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى خلقتهم، وكيف تغلبوا على التى عاكستهم..؟ ما هو معروف الآن غير كاف لسد الفراغ الكبير الذى نحس به حين نريد أن نتعرف على الحقائق الاساسية التى لا يتم بدونها بناء تاريخى حقيقى .

يمكن أن نقول نفس الشيء عن المرينيين والسعديين والدلائيين والسملاليين والعلويين.. كل الحركات التاريخية الكبيرة فى المغرب اذن ، أصلها من هذه البوادى التى لا نعرف عنها ما يكفى ليلقى عليها أضواء تلحقها بالجزء المضاء نسبيا من تاريخنا .

نشأة غامضة يعقدها اهتمام مؤرخى الاحداث بالرسمى منها فقط كما تريده الاسرة الحاكمة ، وغض النظر عن كل ما سواه. وهكذا يسدل الستار باستمرار حتى على المناطق التى رأت فيها هذه الدول النور لاول مرة .

من الملاحظ أن هذه البوادى ، رغم تجاهل المصادر لها ، كانت تفرض دوما نفسها كلما سمحت لها الظروف بذلك . خصوصا ابان الازمات التى تتلو غالبا كل ضعف فى السلطة المركزية . هذا الضعف الذى يسبب أحيانا تمرد البوادى المستمر. فى مثل هذه الحالة نجد فى المصادر اشارات الى هؤلاء الفلاحين الذين يعتبرهم كثير من المؤرخين الحضريين أجانب مخربين . وبالتالى فهم يقتصرون فيما يخبروننا به عنهم على معلومات هزيلة تشوهها النظرة الطبقية التى كونوها عنهم مسبقا .

واذا علمنا أن جل المصادر التى نعتمد عليها الآن فى دراسة هذا الجزء من تاريخنا ، أى الاثنى عشر قرنا الاخيرة، كتب أغلبها الحضريون،

أدركنا مدى عمق الفراغ الذى يفصلنا عن معرفة صحيحة لتاريخ هذه البوادى .

كل ما كتبه العرب فى هذا الميدان لم يهتم بالبوادى .

اذا كان السبب هو عدم ادراك هؤلاء المؤرخين لاهمية هذه البوادى فى الديناميكية التاريخية ، فهم معذورون وهذا ممكن الى حد ما . لان الاهتمام بالتاريخ الاجتماعى ، بصفة عامة ، شيء حديث نسبيا حتى فى الدول الاوروبية . ومع ذلك فهذا العذر فى حالة كهذه ، يصعب قبوله بدون شيء من التحفظ . أما اذا كان الامر يتعلق بالمفهوم العام للتاريخ عند هؤلاء كعرب ومسلمين . فالمشكل له أبعاد أخرى لا مجال للخوض فيها الآن (1)

اذا كنت لا أريد أن أقبل هكذا ما قاله جورج مارسى فى هذا النطاق بصفة مطلقة ، لاننى أعرف أن هناك كتبا يمكن استثناؤها . الا أن هذه المستثنيات نفسها لا يمكن اعتبارها نتيجة اهتمام خاص بالبادية ، وبذلك فهى – رغم قيمتها – لا تكفى لدحض الفكرة أساسا .

تلك اذن هى الوضعية الحالية عموما . واذا اعتبرنا ما أشرت اليه سابقا من كون المصادر التى نعرفها الآن من وضع الحضريين ، فان هذا النوع من المصادر لا يمكن اعتباره بغض النظر عن الوضعية الاجتماعية لكاتبيها الذين هم من وسط حضارى محدد ، ومن طبقة معينة ولو بالانتماء أو التبنى ... هذه الفروق تزداد تفاقما اذا تذكرنا الطلاق الثقافى ، وخصوصا اللغوى، بين مدننا وبوادينا.

منذ نهاية القرن السابع الميلادى على الاقل .

هذا الطلاق الثقافى الموجود بين سكان البوادى والطبقات الحاكمة والموجهة فى المدن له أهمية كبيرة فى نظرى . ويعتبر – فى رأيى – من المحركات الاساسية لتاريخ المغرب . اذا اعتبرنا أنه من العوائق الاساسية التى تحول دون تفاهم وتمازج مجتمع المدن ومجتمع البوادى بصفة سريعة وفعالة .

والغريب هو أن هذا الجانب لم يجذب نظر الذين اهتموا بتاريخ المغرب حتى المغاربة الشبان منهم . نعم، حاول السيد العروى، فى كتابه الاخير « تاريخ المغرب » ، (الكبير). أن يتامل تاريخ المغرب بعين مغربى. ولاحظ فعلا هذا التنافر الموجود بين المدن والبوادى ، وتحدث عن وجود نظامين اقتصاديين بل مجتمعين وسلطتين سياسيتين . هذه كلها تتجاهل فيما بينها وغالبا ما تتطاحن. وأكد أن تاريخ المغرب لا يمكن فهمه – الا ابتداء من القرن الثالث عشر – انطلاقا من الصراع بين الدولة أو المخزن والمجتمع . (صفحة 236) .

أما كونه تحدث عن نظامين اقتصاديين مختلفين ، فلست أدرى الى أى حد نستطيع أن نقتنع بذلك خصوصا اذا كان يقصد مجتمع المدن بصفة عامة ، وفي القرن الثالث عشر وحتى القرنين التاليين ، اذ نجد النشاط الزراعى لا يزال يلعب دورا مهما ، ان لم نقل أساسيا في الحياة الحضرية ، دون استثناء الطبقات الغنية من الذين ينتمون اليها . وقد أشار العروى في نفس الصفحة الى أن التجارة والقرصنة ، في المدن ، من احتكار الاجانب . وهذه ترجمة

ما قال : « اذا غضضنا النظر عن المدن الآهلة بالأجانب الذين يعيشون على القرصنة والتجارة ، والتى تحظى وحدها باهتمام مؤرخى الاحداث (Les chroniqueurs) وعن المناطق الجبلية المنطوية على نفسها بصفة مستمرة تقريبا ، والتى لا تزال الحياة فى معظمها – بالنسبة الينا – سرا من الاسرار، اذا غضضنا النظرعن كل ذلك فان العمل التاريخى ، يقتصر على صراع دائم بين الجيش (جيش المخزن) والسلطات المحلية » .

وهكذا نرى أن هذا التنافر يلاحظ على جميع المستويات . ولكن الشيء الذى يصعب البت فيه الآن هو كشف الاسباب العميقة لهذه الوضعية التى لاتخلو من جوانب لها أهميتها .

هل سيهتم غير العرب بتاريخ البادية المغربية ؟

حينما وضع «جورج مارسى» هذا السؤال ، كان المقصود منه هو حث، أو على الاقل الفات نظر المؤرخين الاجانب والمهتمين بتاريخ المغرب ، الى هذا الجانب المجهول – تقريبا ، من حياتنا . لا أريد هنا أن أضع موضع اتهام حسن نية الكاتب ، الا أننى أفضل أنا ، كمغربى ، يتحفظ من تاريخ كتب الاجانب فيظروف خاصة، أن أضع السؤال على هذا الشكل : هل سيهتم المغاربة بكتابة تاريخ بواديهم ؟

قبل أن أتحدث عن السؤال الثانى ينبغى أن أشير الى أن الباحثين الاوروبيين قاموا بأعمال لها قيمتها فى هذا الميدان . أقول هذا وأنا أفكر، بصفة خاصة ، فى المؤلفات الآتية : كتاب روبير مونتانى (R Montagne) : « البربر والمخزن » (les Berberes èt le Makhzen) الذى أصبح الآن مصدرا لا غنى عنه لمن يريد معرفة البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للاطلس الكبير الغربى على الخصوص . هذه المنطقة التى نسى عديد من الناس الدور الهام الذى لعبته فى تاريخ المغرب . ثم كتاب جاك بيرك J Berque « البنيات الاجتماعية للاطلس الكبير » (Structures sociales du haut-Atlas) والذى تناول فيه بالدرس ، على الخصوص ، قبيلة ايسكساون . وهو الوحيد من نوعه فى هذا المجال ، والجدير بالذكر أنه نشر منذ أكثر من خمسة عشر عاما . وهو نتيجة سنوات طويلة من البحث والتأمل فى عين المكان . ورغم ذلك فالاستاذ بيرك نفسه ادرك الآن أن كتابه فى حاجة من ينقده . وقد سبق لبيرك أن نشر كتابا آخر يحمل عنوان « دراسات فى التاريخ البدوى المغربى » (Etudes d'histoire rurale maghrebine) خصه لمنطقة الغرب .

هناك أيضا عدد كبير من المقالات كتبها الاستاذان المذكوران أعلاه وغيرهما ، نشرت فى مختلف المجلات العلمية المتخصصة .

وأخيرا أشير الى كتابين مهمين صدرا أخيرا . أولهما : لـ (E Gellner) أولياء الاطلس (Saint of the Atlaè) وهو محاولة جديدة فى تحليل البنية الاجتماعية لسكان الاطلس الكبير الاوسط . وبذلك يمكن اعتباره أول نقد جدى لما أتى به «روبيرمونتانى» من نظريات قبل ذلك وثانيهما لـ: (Daniel Noin) « سكان البوادى المغربية » (La population rurale du Maroc) ورغم أن هذا الاخير له صبغة جغرافية أكثر منها تاريخية فانه يعتبر بحثا هاما سيفيد المؤرخ الى حد كبير .

تلك أمثلة لا حصر ينبغى الاستفادة منها خصوصا اذا كان صاحبها معروفا بأهدافه العلمية المحضة ، ثم أن نقدها شيء ممكن دائما .

أما عن السؤال الثانى فأقول منذ البداية ، ان الامل كبير. لانى أعلم أن مجموعة كبيرة من المؤرخين الشبان أدركوا ، فعلا ، ضرورة اتخاذ هذا الاتجاه . هذا الشعور نجده عميقا عند جل أساتذة التاريخ فى كلية الآداب بالرباط ، وهذه، طبعا ، بداية حسنة ومشجعة . الا أن هذا العمل ليس بالهين السهل نظرا لعوامل كثيرة ، أهمها : ضعف الامكانيات المادية . والفردية فى العمل وقلة الوثائق وخصوصا صعوبة استشارة الموجود منها فى خزاناتنا العمومية والخاصة . وأخيرا عدم نمو المواد المساعدة وخاصة علم الاجتماع والاحصاء والادب الشعبى الغنى بكثير من الاشارات التاريخية والسيوسيولوجية .

قلة الوثائق :

أما عن قلة الوثائق ، فلست ادرى الى أى حد يمكن الآن أن نتخذها عذرا نستر به نقصنا فى هذا الميدان . خصوصا اذا علمنا أن «جورج مارسى» زعم ذلك قبل أكثر من نصف قرن. واذا كان «روبير مونتانى» قد أكد نفس الشيء فى مقدمة كتابه «البربر والمخزن» والمنشور سنة 1930 حيث قال : «ان المصادر التاريخية الحقيقية نادرة فى هذه البلاد» فان الامر ليس كذلك الآن . ويكفى أن نقارن بين ما كتبه «جرمان عياش» فى هذا الموضوع وبين مزاعم ما قبل الاستقلال

عموما . لنتأكد أننا نتوفر على ذخائر وثائقية هامة . تجمع أهمها فى خزانة القصر الملكى والخزانة العامة بالرباط. غير أنه يوجد فرق كبير بين ان تكون عندنا وثائق تنخرها الارضة ، وبين أن توضع فىمتناول الباحثين وتسهيل الوصول اليها .

الا أن هذه الوثائق المحفوظة . يبدوا أن جلها يعد من النوع الذى يحمل اسم « وثائق الدولة » أى انها عبارة عن ظهائر ورسائل رسمية بين السلطة المركزية والسلطات المحلية. وهذا النوع فى نظرى ، رغم أهميته، لا يكفى ليعطى نظرة شاملة حقيقية عن الوضعية الاجتماعية فى المغرب حتى فى العهود التي تعتبر أغنى من غيرها من حيث كمية الوثائق المتوفرة عنها . وبتعبير آخر ، هذه الوثائق تعكس وجهة النظر الرسمية ، وبالتالى فهى تنطوى على نقائص هذه الخاصية . خصوصا اذا تذكرنا ذلك الصراع الدائم الموجود بين المخزن وهذه البوادى التى نبحث عن معرفتها معرفة صحيحة .

كيف نستطيع أن نعيد بناء تاريخ بوادينا فى ظروف صعبة كالتى ذكرناها ؟

اجابة عن هذا السؤال ، أقترح ما يلى :

1 – تأمل وتتبع هذه البوادى بصفة منهجية مع ابعاد فكرة التخصص بين المواد المختلفة ولو كانت متناقضة، اذ التقاء وتعاون رجل الفقه والاديب والمؤرخ والجغرافى والاختصاصى فى الثقافة الشعبية وآخرين غيرهم ، شيء لا محيد عنه فى مثل هذه الظروف . هذه الفكرة أوردها الاستاذ «جاك بيرك» فى مقدمة كتابه «دراسات فى التاريخ البدوى المغربى» .

اعتبارا لهذه الضرورة الملحة ، نجد أن مهمة المؤرخ الباحث تتعقد أكثر، وأن العمل الفردى وحده لا يكفى لسد الفراغ .

2 – تكوين مجموعات عديدة من الباحثين . لا فى ميدان التاريخ وحده بل فى المجالات الاخرى .

3 – نشر المخطوطات الموجودة بعد تحقيقها .

4 – تغيير البنية الحالية لـ «مركز البحث العلمى» وتأسيس مطبعة فعالة تابعة له حتى يتأتى الخروج من الركود الحالى .

5 ـ ترتيب الوثائق المخزنية ، وتسهيل الوصول اليها . وهذا العمل ليس بالسهل الهين ، لذلك ينبغى أن يكلف بـه أناس لهم اختصاص ودربة وتقنية حديثة .

6 ـ جمع التراث الشعبى بكل أنواعه . وهذا لا يتأتى ، فى نظرى ، الا بعد تأسيس معهد أعلى للثقافة الشعبية ستكون له ، لا محالة ، أهمية كبيرة .

7 ـ تنمية الدراسات السوسيولوجية واعطاءها الاهمية التى تليق بمادة تعتبر الآن ضرورية لبناء مجتمع حديث على أسس صحيحة واقعية .

8 ـ تأسيس شعبة للتاريخ الاجتماعى فى كلية الآداب حتى نتخلص قليلا من الهيمنة التقليدية لتاريخ الاحداث .

9 ـ توسيع نطاق «معهد التاريخ» الذى انشىء أخيرا فى كلية الآداب بالرباط وتزويده بضروريات البحث العلمى .

لا أزعم أن ما اقترحته كاف لسد الفراغ ، ولكننى أعتقد أن هذه المساهمة لا تخلو من فائدة . كما أننى أومن أنه ما دام تاريخ بوادينا لم يكتب ، فلن يكون بامكاننا أن نتحدث عن شىء يسمى تاريخ المغرب بالمعنى الشامل الكامل للكلمة . ومادمنا لا نعرف تاريخنا كوحدة كاملة فلا يمكن أن ندعى أننا ، فعلا ، شرعنا فى طريق النمو الحقيقى . واذا كنا فى حاجة الى نمو اقتصادى ، فاننا فى حاجة الى معرفة هذا المجتمع الذى نريد أن ننميه ، وأرى من المفيد المثمر أن ترتكز كل خطوة فى طريق النمو الاقتصادى على أخرى سابقة تلقى أضواء كاشفة على الوسط الانسانى الذى من أجله ينشأ المعمل وتشق الطرقات وتبنى السدود ... اذا كان الامر كذلك فنحن اذن فى حاجة الى علماء فى الدراسات الاجتماعية بنفس الالحاح الذى يشعرنا بالحاجة الماسة الى المهندسين والتقنيين وغيرهم .

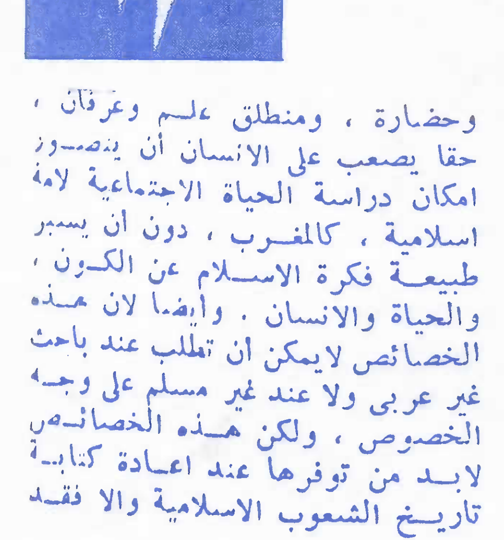
باريس ـ على أزيكو

(I) انظر ، Les grandes doctorines de l'histoir : لـ Albanc g. Widgery

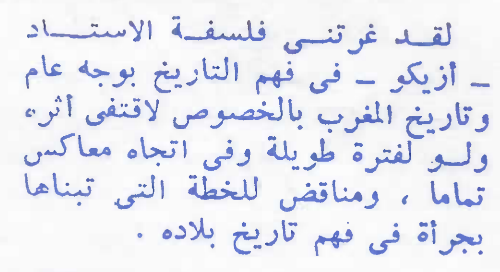
التاريخ يعطينا الجواب

(وليام جيمس)

من ذيول البحث التاريخي في المغرب



بقلم : احمد الفحصى



لقد غرتني فلسفة الاستاذ – أزيكو – فى فهم التاريخ بوجه عام وتاريخ المغرب بالخصوص لاقتفى أثره ولو لفترة طويلة وفى اتجاه معاكس تماما ، ومناقض للخطة التى تبناها بجرأة فى فهم تاريخ بلاده .

بيد أني لم أرد أن أساير مقالاته تلك بالنقد التاريخى المتعارف ، وانما أضع لاخينا نقطا مجملة ازاء فلسفته التاريخية ، وأحوم حول أفكاره لالقى عليها بعض الاضواء التى تبين الخط الفاصل بين بحوثه التاريخية وبين تاريخ المغرب القويم – ولكل وجهة .

ولئن دهشت أول وهلة من مقاله الخطير المنشور فى العدد الاول من مجلة «الكلمة» تحت عنوان : « تاريخ المغرب كيف يجب أن يكتب » فانى الآن أمام مقاله رقم –2– طمأننت تمام الاطمئنان تجاه مؤرخنا الناشيء ؛ وأيقنت أن الامر لا يعدو التورط فى مدرسة تاريخية مختلقة وعتيقة فرضتها طبيعة الاستعمار الغربى فى العصور الحديثة ، وهيأت لها جهازا بأكمله ممن ينعتون بفلاسفة التاريخ المجددين الذين جعل منهم الاخ – أزيكو – السند الاصيل لصواب ورشد طريقته فى البحث العلمى للتاريخ ، ويا ليلته ادرك قبل ذلك أن هؤلاء ما هم الا رؤوس تجار الكلمة المشبوهة سيق بهم لتشويه تاريخ الامم المغلوبة على أمرها ، وبالاخص تاريخ الاسلام الذى يحسب له هؤلاء واسيادهم ممن سخروهم الف حساب .

نعم ان مدرسة التاريخ المفتعلة هذه أصبحت فى عصرنا الحاضر ظاهرة اجتماعية مسلما بها عند انصاف المثقفين لا فى المغرب فحسب ، ولكن فى سائر دول العالم الثالث حسب التعبير السياسى .

على أن هذه الخطة العتيقة التى خدعت شبابنا ومنهم أخونا المؤرخ فتبناها بكل حرارة وكأنه مخترعها فى عوالم مجهولة من الاكتشافات المنهجية ، لم تعد تثير الاهتمام أكثر من أن تحدد اتجاه آراء طائفة من المغامرين المتسترين تحت اسم العلم والتاريخ الذين كانوا فى مقدمة الزحف الاستعمارى ، وبواسطتهم عمد الى تشويه تاريخنا وفكرنا ومنهجنا فى الحياة .

قد يتعلل الاستاذ المؤرخ بالتزامه فى الدراسة التاريخية هذه ، على أنه يتبنى منهجا جديدا حديثا يتمشى والمدرسة الحديثة فى البحث التاريخى الخاضعة لما جد من الفكر المنهجى المعاصر ، وان التزامه هذا أيضا يفرض عليه الانسياق من دون تحفظ وراء هذا التيار التجديدى للتاريخ .

ونحن مع احترامنا لهذا الطموح النبيل ، والتطلع العلمى الاصيل ، تبقى أمامنا زاوية أخرى لموضوع السيد – أزيكو – وأعنى بها الانجراف مع كوكبة المؤرخين المنحرفين أولا ، ثم التعمد لدراسة قضايانا التاريخية وتحريفها بالقياس على قضايا تاريخ أمم أخرى ، دون تمييز بين البيئة التاريخية التى لها وزن كبير فى التعليل التاريخى ، ولا ندرى هل هذا عن عمد أو غير عمد من السيد المؤرخ. المهم أن هذا الاتجاه الذى انغمس فيه مؤرخنا بكلياته أفقد بحثه الحقيقة العليمة فراح بعيدا عن الواقع التاريخى للمغرب وبالتالى عن المنهجية التاريخية ذاتها .

لانه : كما يقول السيد قطب «ح» (لكى يفهم الانسان التاريخ ويفسره ويربطه بما قبله وما يليه يجب أن يكون لديه من الاستعداد الكامل لادراك مقومات النفس البشرية جميعها ، معنوية ، ومادية ، وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحوادث التاريخية ويستجيب لمقتضياتها دون أن يرفض شيئا الا بعد تحرج وتمحيص وتقدير، أما اذا كان المرء يتلقى فلسفة التاريخ بادىء ذى بدء وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس ، عن عمد أو غير عمد، فان ذلك التعطيل يحرمه من التماس الحقائق التاريخية وادراكها ، ومن ثم يكون تفسيره للتاريخ وفلسفته خاطئا وناقصا فى آن واحد)

لقد شدني موضوع الاخ المؤرخ اليه هذه المرة ، لا باعتباره تحليلا فلسفيا مثيرا للوقائع التاريخية المغلوطة للمغرب ، والمبنية على قواعد مهزوزة ، ولا باعتباره بحثا يمت الى البحوث المدسوسة بصورة غريبة والدم ، وان كان يسبقه الركب الزمانى ، حيث ان هذه الانماط من البحوث كما قلت فى مقالى الاول مع الاخ – أزيكو – ترجمت عناوين وشعارات الاستعمار الامريكي الذى مهد للاستعمار المادى فابتلع العالم الاسلامى لقمة سائغة .

ولكن فوق هذا وذاك انها معطيات مدرسة فاشلة ما زالت تجر ذيلها فى هذا العالم الاسلامى رغم انحداره السياسى فى الجملة ، وان كل الناس اليوم فى المغرب كما فى سائر العالم الاسلامى أيضا ، يرون أن مثل هذه البحوث فى مفهومها العميق ، ومدلولها العلمى ، وفلسفتها العقلانية ، لا ترمى الى شيء أكثر من انتكاسة فى التفكير المغربى للتاريخ . وبعد ذلك طمس للاسس التاريخية المشرقة للمغرب التى اتضحت معالمها مع تاريخ الاسلام الاول ، الاسلام الذى جعل من المغرب منارة هداية وحضارة ، ومنطلق علم وعرفان ، حقا يصعب على الانسان أن يتصور امكان دراسة الحياة الاجتماعية لامة اسلامية ، كالمغرب ، دون أن يسبر طبيعة فكرة الاسلام عن الكون ، والحياة والانسان . وأيضا لان هذه الخصائص لايمكن أن تطلب عند باحث غير عربى ولا عند غير مسلم على وجه الخصوص ، ولكن هذه الخصائص لابد من توفرها عند اعادة كتابة تاريخ الشعوب الاسلامية والا فقد التاريخ أمانته وصدقه .

ان تاريخ المغرب وهو من تاريخ الاسلام يجب أن تعاد كتابته من زاوية جديدة ، وتحت أضواء جديدة لكى تعطى أسرارها واشعاعاتها وتتكشف بكل عناصرها ومقوماتها، ويجب فى هذه الدراسة الجديدة أن تكون المصادر العربية الاسلامية هى المرجع الاول ، أما الدراسات الاوربية على عمومها فينتفع بها كمرجع ثان مع تحرير النصوص وتنسيق المظان، واختيار الافكار ، وببعض المقارنات بين مصدر الروايات من حيث الصحة والضعف فقط . كل ذلك مع حذر شديد ، وفطنة نادرة . أما ان نعمد الى مثل مصادر الاخ – أزيكو – فنجعلها أمهات لمصادر بحثنا ، وأسسا قوية لافكارنا ، ومنهجنا فى التاريخ . فان ذلك يعنى أننا فقدنا كياننا وذاتنا ، وتاريخنا ، دفعة واحدة ، وابتدأنا من الصفر نبحث مع مؤلفى « البربر والمخزن » و « أولياء الاطلس » و « والبنيات الاجتماعية للاطلس الكبير» وغيرهم كثيرون ، ولا ندرى كيف اقتصر الاخ على هؤلاء وترك مذكرات « اليوطى » ، « وبوى دو لاتور » و « بونفاس » و « توماس فكراس » والعشرات الآخرين ؟؟؟

ولعل مثل هذه المؤلفات هى التى ساقت الاخ المحترم فى منهجيته الى قضية البادية والحاضرة فى المغرب ، وهى قضية مفضوحة ، فبعدما مهد لها أصحاب المراجع السابقة نفذت بالفعل فى حقب من التاريخ الوطنى للمغرب ، فهجومات فرسان القبائل وتجمعاتهم على أيدى أعداء قومية المغرب ، والعمل على خلق العنصرية الضيقة بين سكان المغرب أيضا . كل

هذا ليس عنا ببعيد ، ولعل مؤرخنا سيصل فى بحثه التاريخي للمغرب الى أيام الظهير البربرى المشؤوم الذى يعتبر حتمية مدرسته التى يتبجح بها اليوم، وعلينا أن ننتظرحكمه الفلسفي فى ذلك !!!

ومرة أخرى أشار الاستاذ فى مقاله الى قيام الدولة الاسلامية بالمغرب من المرابطين الى الموحدين ، ومن المرينيين الى العلويين ، ولجهل الاخ أو تجاهله للسير الطبيعى لتاريخ الاسلام ، وانسياقا مع مصادره السالفة الذكر ، أرغم على طمس حقيقة جلية وهى : ان قيام تلك الدول ومثيلاتها ما كانت الا تجديدا للمد الاسلامى العربى الاصيل، فى أرض عربية اسلامية اصيلة أيضا .

ولتهيىء الفكرالتاريخى فى المغرب، وتكييفه من أسسه ، يجب أن يطلع مؤرخنا الجديد على سير بعض الحقائق التاريخية التى نلفت نظره اليها هنا، تلك الحقائق التى لعبت دورا هاما فى التحول الفكرى بمفهومه العام سواء عندنا هنا فى المغرب أو وسط شعوب العالم الاسلامى ، وعسى أن يجد فى ذلك مادة أخرى من مواده التاريخية يضيفها الى مواد أخرى ليستخلص بنشاطه منها العبر والذكرى .

ان الدعوة الى احياء الحضارات القديمة . مع التركيز على تاريخ ما قبل الاسلام بالذات . قد ظهرت فى العالم الاسلامى بتخطيط وتوجيه من المؤرخين الاوربيين عموما، ومن مؤرخى الاستعمار على الخصوص . والشىء الملاحظ فى أمرها ، أن النداء بها ارتفع فى وقت واحد . فى كل من تركيا . مصر ، الشام ، العراق ، ايران ، الهند ، وطبعا هنا فى المغرب. وفى كثير من دول افريقيا وآسيا المسلمة .

وكل متتبع لذلك يدرك لاول وهلة أن مظهرها فى هذه البلاد كلها واحد. وأسبابها متشابهة ، والمحرك لها والدافع اليها متشابه أيضا . وهو العمل على قبر الحضارة الاسلامية حتى لا تتفتح أنظار المسلمين عليها ، وفى نفس الوقت فتح نوافذ لابناء الاسلام على الحضارات لعتيقة التى سادت أو لم تسد .

ليشغلوا بها أفكارهم . ويملؤوا بها أدمغتهم ، فلا يستطيعون بعد ذلك أن يلتفتوا لتاريخ أجدادهم الذين ملأوا الدنيا نورا وعلما وحضارة وحكمة وأدبا .

لقد استطاع مشوهو لتاريخ أن يعلموا عن حضارتنا العربية ، وتاريخنا الاسلامى . بقدر ما نعلم وأكثر ، وهم على يقين أن شبابنا لو أتيحت له الفرصة للاطلاع على حضارة الاسلام الجبارة لاعجب بها أيما اعجاب ، ثم لاعجب بالاسلام نفسه الذى يكمن فيه سر تكوين تلك الحضارة الخالدة ، لذلك بذلوا جهد طاقتهم ليحجبوا نور هذه الحضارة عن الافكار والانظار ، وأحيوا فى نفس الوقت وسط مثقفينا ، الحضارة الاشورية ، والبابلية ، والفنيقية ، والفرعونية ، والبربرية . ثم شرعوا هم وجنودهم المخلصون يشيدون بها ويملأون بها المؤلفات ، ويحبرون بها المقالات . ويقيمون لها المتاحف والمعارض ، فانساق شبابنا وراءهم فى حماس الى ميدان الافتخار بتاريخ حمو رابى وخوخو ، وافريقش ، ومازيغ ، واضرابهم من أساطير الاولين ، بدل الاعتزاز بحضارته الاسلامية وأمجاده التاريخية التى انبعثت مع تاريخ الاسلام العظيم .

والعجيب فى أمر شبابنا اليوم ، أنهم يعرفون عن الحضارات البائدة هذه أكثر مما يعرفه عن حضارته الاسلامية التى لها أياد بيضاء على الحضارة العالمية الحديثة ، وذلك بفضل الاستعمار ومكايده المستمرة التى قد لا يدركها هؤلاء المساكين ، لانهم فتحوا أعينهم فى مدارس شاذة. وعلى أساتذة مشوهين تزعموا حركة التشويه المنحرفة بالمفهوم الفكرى والتاريخى فى بلدان العالم الاسلامى.

على أننا منذ أمد مديد . ونحن ندرس لشبابنا فى مدارسنا ومعاهدنا تاريخا مغربيا واسلاميا مشوها . بجانب تاريخ أوربى ضخم ، وان ذلك لا عن مجرد مخطط غير مقصود ، ولكن عن نية مبيتة ومدروسة من أولئكم الذين يهمهم الا نجد فى تاريخنا ما نعتز به . حتى اذا يئسنا من تاريخنا الاسلامى ، ورجعنا الى تاريخ حضارتنا الغابرة والغير المرغوب فيها جملة وتفصيلا ، امتلأت نفوسنا اعجابا بتاريخ أوربا ، أو انحسرنا مع « فلكلورنا » النحس نرقص قردة خاسئين .

تحت هذه التأثيرات درس شبابنا التاريخ ، وبهذه المقاييس يحاول البعض أن يكتب تاريخنا من جديد . وخضوعا لهذه العوامل أصبحنا نواجه مفهوما للتاريخ أجنبيا عن عقيدتنا وتاريخنا ، أجنبيا عن مشاعرنا وادراكها للامور ، أجنبيا عن فهمنا واحساسنا بالحياة العامة .

فيجب اذن أن نكون حذرين تمام الحذر ، ورافضين بكل قوة هذه الانماط من البحوث التاريخية التى يتحفنا بها الاخ الكريم ونظراؤه ، وهم كثيرون ، خوف أن نقع فيما يخطط لنا من الوقوع فى مأزق تيار حضارى مفروض ينسينا ذاتنا وشخصيتنا .

علينا أن نكشف حقيقة دورنا فى التاريخ الانسانى ، وهذا شىء واضح المعالم فى مسيرة تاريخنا الاسلامى، علينا أن نشيد بمكانتنا فى الركب التاريخى الاصيل محافظين على قيمتنا وقيمنا فى حظيرة العالم الاسلامى .

الرباط ـ أحمد الفحصى

رد على رد

كنت أود أن يثير مقالى المنشور فى العدد الاول من مجلة «الكلمة» الغراء نقاشا حادا ومفيدا لنكون بذلك قد بدأنا أو ساهمنا فى بعث الحوار العلمى الموضوعى الذى نشعر جميعا بخموده ان لم نقل بانعدامه فى بلادنا. هذا الحوار الذى توكد طبيعة الفترة التى نجتازها الآن حاجتنا الماسة اليه، أى ان أى مثقف مغربى له المام ولو بسيطا بسنن التطور العامة ، وتمكنه ثقافته من النفوذ شيئا ما الى طبيعة الاشياء سوف لا يفوته الشعور بأننا الآن بين تيارين يتجاذباننا بقوة: ماض واحد لا يمكن تجزئته ، ومستقبل هو فى جوهره استمرار للماضى مع ما يطرأ عليه من تكييفات تفرضها الظروف المحيطة به ، فاذا كان ماضينا من صنع غيرنا فاننا لا يمكن بحال أن نغيره ، ولكننا أكثر استعدادا لفهمه وبالتالى تفسيره .

وبما أن فى حاضرنا استمرارا لماضينا فان نفوذنا الى صميم مشاكلنا الحالية ، والتى يتوقف مستقبلنا على نوع الحل الذى نريده لها ، مرتبط الى حد كبير بكيفية فهمنا للماضى .

وبما أن مقالى المذكور لم يثر – على عكس ما تمنيت – الا ردا هزيلا كتبه أحمد الفحصى ، ونشر فى العدد الثانى من «الكلمة» فاننى لم أشعر بأى حماس للرد على البساطة بمثلها . وعلى اللاموضوعية ببلبلة تضاهيها ،

ولولا خوفى على أطفالنا الذين لم يبلغوا بعد مرحلة التمييز بين الافكار التى يعززها المنطق ويقويها الايمان، والتى تفصلها عن المنطق هوة ساحقة، وبكللها ضعف التقليد الببغائى لما حملت القلم لكتابة هذه السطور .

ومع أن السيد أحمد الفحصى يغرى بما كتبه هواة الاستهزاء ، نظرا لبعده عن أبسط القواعد العلمية والتى تظهر مدى ثقافة المرء ، فاننى سوف لا أكون من أولئك ، وسأكتفى – احتراما للقراء – بابراز بعض المشاكل المهمة القائمة فعلا ، والتى أتاح لنا السيد الفحصى فرصة وضعها أمام أنظار القراء الكرام ، غير أن شرف اثارتها لا ينبغى أن يكون له، لانها جاءت هكذا عرضا فيما كتبه دون أى وعى منه بها .

حينما قرأت كلام السيد الفحصى أول مرة لاحظت أنه كتب ما كتب وهو فى حالة نفسية لا يحسد عليها ، ويظهر ذلك جليا فى الالفاظ التى استعملها (الانحرفات – حزفى نفسى– تاريخه قبل الاسلام – التشويه – البشاعة – تعريب الاسماء) والتى لا يمكن أن يستعملها من كان فى حالة طبيعية همه الرد بموضوعية على فكرة أو مجموعة أفكار يرى هو عكسها .

قلت فى نفسى بعد ذلك : لعل السيد المحترم وقع تحت تأثير الغيرة أو الفزع أو ... ولكن على ماذا ومماذا؟ بعد مجهود كبير استنتجت أن السيد الفحصى يريد أن يدافع عن العروبة والاسلام وفهمت بدون صعوبة أنه يعتبرهما شيئا واحدا ، وان الفصل بينهما يعتبر كبيرة كالشرك بالله .. كما أدركت أنه يخاف أن تندثر الحضارة الاسلامية التى ساهمت فى بنائها شعوب كثيرة مختلفة الاجناس واللغات ، والتى يحلو للسيد الفحصى جهلا أو تجاهلا وتضليلا نسبتها لمجموعة معينة من البشر .

وهنا أذكر أنه ليست هناك حضارة نهائية لا تتجاوز ، بل ان الحضارات الانسانية يعلو بعضها بعضا ، ولا يمكن بأى حال أن تعتبر هذه الحضارة أو تلك أساسا أو قمة للحضارة البشرية ، فكل المجتمعات البشرية مهما كانت بدائية أو متحضرة نسبيا قد شاركت من قريب أو بعيد فى اعلاء هذا البناء الضخم ، وهذه سنة من سنن التطور التى لا يمكن بحال تغييرها بمجرد كتابة كلمات جوفاء..

كلنا متمسك بحضارتنا الاسلامية التى ليست بدورها الا جزءا من حضارتنا الانسانية الشاملة . وبما أن السيد الفحصى قد ارتكب خطأ الفصل بينهما فانه قد مس بذلك مبادىء الروح الاسلامية المبنية على التسامح المطلق بين العقائد واللغات والثقافات والحضارات والاجناس المختلفة .

وياليته وقف عند حد الفصل والبتر ، بل استعمل كل ما أمكنه من عبارات التنقيص والاحتقار لتاريخ وحضارة المغرب والما قبل الاسلامى، وبذلك تجرأ ، وبدون أى خجل على **تجزىء ماضى أمة لا يمكن تجزيئه مع ما يتلو ذلك من نتائج سيئة لا أظن أن السيد الفحصى يقدرها حق قدرها.**

اذا كانت اسبانيا الكاثوليكية الآن تعطى أهمية كبرى للابحاث العلمية التى تتناول العصر الاسلامى فى الاندلس ، وتحاول – وبكل اعتزاز – ابراز الثقافة الاسلامية الاندلسية للوجود ، عكس ما فعله المتعصبون المسيحيون بعد سقوط الاندلس ، أقول : اذا كانت اسبانيا الكاثوليكية كذلك فان منا ممن أعماهم التعصب من يعلن احتقاره لماضى أمة هو بين ظهرانيها كل ذلك باسم الاسلام «القديم» وتحت ستار الدفاع عن الحضارة الاسلامية التى أراد لها الاسلام أن تكون مركبا رائعا من حضارات مختلفة يغلب عليها الطابع الانسانى ، وبذلك تمتاز عن غيرها التى يطبعها الطابع القومى المحدود وتطغى عليها الصبغة المحلية الضيقة.

ولو قدر لكلام السيد الفحصى أن يكون ردا عن «هجوم منسق» على الاسلام من توجيه رجال الكنيسة ،

بقلم : ص. على أزايكو

لا من كتابة مسلم من الطراز الجديد كما سمانى فى رده ، أقول لو قدر ذلك لكان برهانا قاطعا لهم يؤيدون به أفكارهم ودعاياتهم ضد الاسلام .

وبالفعل فمن قرأ كلام السيد الفحصى ممن لم يتعمق الفكرة الاسلامية فسرعان ما يفهم أن التعصب وضيق الافق والتزمت الفكرى والعنصرية .. كلها جزء من الاسلام ، يدافع عنها فقهاؤنا وبمهارة

متى كان الاسلام فى حاجة الى أمثال هؤلاء للدفاع عنه ، وان الفكرة الاسلامية مبنية أحسن بناء وأتقنه ، وهيهات أن يتمكن أعداؤها – وقد حاولوا – ممن سخروا كل مجهوداتهم العلمية من النيل منها ، واذا كان لابد من الدفاع عن الاسلام

فليكن ذلك بمنطق وعلم وعمق فى التفكير ، وكل هذا كامن فى صميم الاسلام ، فلندرسه ولنتأمله بعمق..

ومن الاشياء التى لفتت نظرى وأنا أقرأ للسيد الفحصى اقتران كلمتى الاسلام والعروبة فى كلامه : «للنيل من العروبة والاسلام» . «فصل شمال افريقية المسلم العربى... عن عروبته واسلامه» ماذا يقصد الكاتب بالضبط بـ «العروبة والاسلام» ؟ شىء واحد ؟ شيئان مرتبطان لا يتأتى فصلهما ؟ أم هو عدم الدقة فى التعبير ؟ أم هو طغيان العبارة من فرط سماعها من الاذاعة وأحاديث الشوارع وأعمدة الجرائد ؟

اذا كان السيد الكاتب لا يميز بين الكلمتين فليفعل من الآن فصاعدا ، سواء كان قوميا عربيا أو اسلاميا ، لان الهوة الكبيرة بين «العروبة ، والاسلام» وهذه أمثلة تؤكد له ما أقول :

«لاينهض العرب الا اذا أصبحت العربية والمبدأ العربى ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبى الكريم...» (عمر فاخورى – كيف ينهض العرب – نقلا عن كتاب «الامة العربية فى معركة تحقيق الذات» الاستاذ محمد المبارك)

«أصبح العرب المسلمون فى ذلك فريسة سائغة لدهاء الاقلية غير المسلمة فى الشرق العربى التى يتوقف مصيرها على انتشار فكرة القومية العربية وحلولها محل الدين الاسلامى والتى تستطيع أن تصل عن طريقها الى مركز الزعامة والقيادة والتوجيه فى العالم العربى ، وتستطيع أن تفصل بها العرب عن بقية العالم الاسلامى الذى لاترتبط به هذه الاقلية عقيدة وعاطفة وتاريخا »

(أبو الحسن الندوى – العرب والاسلام ص 15)

«هل يفهم القوميون القومية على أنها خطوة فى الطريق طريق الوحدة الاسلامية الكبرى ؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن نوجهه الى أنفسنا ، وهو سؤال مهم فى الموضوع ... الواقع أن القوميين لايفهمون القومية هذا الفهم ، ولا يعملون لها على هذا الاساس عندما يسعون ليمكنوا لها فى عقول الشباب وقلوبهم وليجعلوها قوة سياسية تتحكم بمصائر البلاد العربية »

فالاستاذ ساطع الحصرى وهو أبرز مفكرى القومية العربية يقول فى كتابه «العروبة بين مؤيديها ومعارضيها» ما معناه : - اذ ليس الكتاب تحت يدى الآن لانقل عنه كلامه بالنص - «ان الذى نفّر انطوان سعادة - منشىء الحزب القومى السورى وواضع مبادئه ومنها سوريا للسوريين، والسوريون أمة تامة ، وهو لايقبل مبدأ الوحدة العربية - من العروبة وجعله يفهم منها النكوص الى الوراء والبداوة والهمجية والعصبية الطائفية انما هو اقتران العروبة فى ذهنه بالاسلام ، ولو أنه عرف أن العروبة شىء منفصل عن الاسلام غير مرتبط به لما حمل عليها هذه الحملة، ولما أتهمها بالرجعية والبداوة والتأخر والتعصب»

هذا هو مؤدى كلام الاستاذ الحصرى وان لم يكن هو نصه الحرفى ، وهو كلام يعبر عن عقيدة أكثر القوميين، وكم قرأت لبعض قادة أحزابهم أن الاسلام لبى حاجة العرب فى زمان معين ومكان ، وقد اختلف الزمان وتبدل المكان ، فلا يجوز أن نحبس الطاقة العربية فى عقائد وفى قيم ونظم كانت ملائمة لسكان جزيرة العرب وما حولها قبل أكثر من عشرة قرون أى قبل أن تتسع للناس رقعة الدنيا بما كشف منها ، وقبل أن يتقدم بالناس الفكر والعلم والحضارة

فالقوميون اذن لايفهمون القومية العربية الفهم الذى يشترطه الكاتب الكبير (سيد قطب) فلا يمكن بالتالى أن تكون قوميتهم خطوة فى الطريق» من مقال للسيد محمد عاصم - نشره سيد قطب فى كتابه : « دراسات اسلامية ص 154 - 155 »

«ان الساسة اليوم ينادون بالقومية العربية ، وتحقيق الوحدة العربية أقرب منالا من تحقيق الوحدة الاسلامية ان مصلحتنا اليوم فى تحقيق هذا الهدف القريب ، ثم ان الفكرة العربية أكثر انتشارا وأوسع نفوذا من الفكرة الاسلامية ، انها تشمل سكان العالم العربى جميعا أما الاسلام فلا يشمل هؤلاء السكان . لقد تعرب سكان هذه البلدة أجمعين ولم يسلموا أجمعين ، انهم لايزال منهم نصارى ولا يزال منهم يهود» عن مجلة العربى الكويتية العدد الاول ديسمبر 1958 .

يقول الاستاذ على ناصر الدين : «فى رأينا أنه يصعب جدا أن يكون مسلم غير عربى مسلما كما أراد الاسلام ورسوله أن يكون بمجرد أن ولد من أبوين مسلمين بل ينبغى له ليكون كذلك مع ما ينبغى أن يصير عربيا بلسانه وثقافته وميوله » عن كتاب العرب والاسلام ، لأبى الحسن الندوى ص 12 - 13 .

«ان العرب المسلمين كانوا أولى وأجدر بالتفكير العالمى وعنايتهم بصالح الانسانية وسعادتها على أساس العقائد والقيم الاسلامية وكانوا أحق أن يكونوا عالميين وانسانيين » نفس المرجع أعلاه ص 13 .

«والمجلة (العربى) لاتصل معنى العروبة بدين» أحمد زكى - العدد الاول من مجلة العربى .

جئت بهذه الاقوال متوالية وبدون تعليق لانبه السيد الفحصى الى أن الكلمتين اللتين يستعملهما مقترنتين، وصلتا الآن الى حد التناقض ان لم أقل التنافر ، وليس من المقبول الآن استعمالهما كذلك لان الاسلام تجاوز حدود بلاد العرب لينتشر فى آسيا وافريقيا وأمريكا أيضا واذا كان العرب يتعصبون لقوميتهم ويضعونها موضع الدين فان فى افريقية السوداء - مثلا - مسلمين يتمسكون باسلامهم بقوة ، ولكنهم ليسوا على استعداد للتخلى عن قوميتهم أى حضارتهم وثقافتهم القديمة والتى سيهذبها الاسلام ويقويها فقط .

ان الذى كان ويجب أن يكون هو جعل الاسلام كفكرة انسانية سامية فوق القوميات ، وكلما حاولنا أن نصبغ الاسلام بصبغة قومية فسدت الامور بين المسلمين أنفسهم ، وهكذا خلق التعصب الاموى للعرب معارضة المسلمين الغير العرب ، فكانت الشعوبية ، والدولة العباسية ، وكان تعنت الولاة العرب فى شمال افريقية واحتقارهم للبربر الحديثى العهد بالاسلام ، فخالفوا بذلك تعاليم الاسلام - سببا فى سلسلة من الثورات العنيفة المعروفة .

وقد وضح سيد قطب هذه الفكرة فقال : «والاسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب أو أن يتم فتح يقصد سيادة عنصر أو تغليب جنس . فالناس قد جعلوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا لا ليستذل بعضهم رقاب بعض ، ولا ليسود جنس أو شعب ، ولذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التى تثير عصبية الجنس أو اللون أو اللغة ، كذلك يستبعد الاسلام من حسابه أن تقوم حرب أو أن يتم فتح بقصد جر المغانم ، وبذلك يستبعد كافة الفتوح الاستعمارية التى تكمن وراءها مطامع اقتصادية» . دراسات اسلامية ص 34 .

هل التزم القواد العرب بهذه المبادىء ابان وبعد الفتوح الاسلامية؟

هذا موضوع آخر يحتاج الى مجال أوسع لبسطه ، ولكن المحقق أن أخطاء كثيرة ارتكبت فى هذا الصدد، ولابد من نقد من يستحق النقد واعطاء كل ذى حق حقه .

وبعد كل هذا أليس من الاليق أن يكشف السيد الفحصى وأمثاله من هواة الغموض المغرض القناع ، قناع التجاهل أو الجهل ؟ أما آن الاوان لفضح هؤلاء الذين يستعملون كلمة «اسلام» لاغراض دنيئة برىء منها الاسلام كل البراءة ؟

أما النقطة الثانية التى أغضبت السيد الفحصى فهى اعتبار المؤرخين المشارقة أجانب عن تاريخنا أى عن مشاكلنا ، وهذا شىء لا ينكره ذو عقل سليم ، ويكفى أن أشير الى أن المؤرخين المشارقة الذين أعنيهم لم يزوروا قط افريقية الشمالية ، أما نظرا لبعدها، أو لقلة اهتمامهم بها ، وبذلك جاءت كتاباتهم صدى للفهم الشرقى للوقائع فى المغرب ، والى الآن لا يزال المشارقة يجهلون المغاربة ، وهذه شهادة على ما أقول : «.. قلت له : لو فاجأتنى بالسؤال عن الاخيرين (المرابطين والموحدين) قبل ظعنى الاول الى المغرب 1958 لما وجدتنى أنصح من أبتك ، ذلك لاننا فى مصر وفى الركن الشمالى الشرقى من افريقيا تقوم ثقافتنا فى معظمها على المشرق دون المغرب» .

(الدكتور حسين فوزى - فى مقاله : سندباد يبلغ المغرب الاقصى العلم الاسبوعى - عدد 122 - 17 شتنبر 1971 ص 2) .

يتضح مما تقدم أن عديدا من المشاكل الحيوية لا تزال مطروحة ، وهى فى حاجة الى البسط بطريقة أحسن من التى أثرت بها بعضها هنا ، وبتحليل أكثر تعمقا ودقة . وحتى نقوم بواجبنا كمثقفين يشعرون بمسؤولية هذه الصفحة ، ينبغى أن نطرحها بكل موضوعية .. وبدوافع خلقتها النوايا الحسنة . هدفنا الخروج من مناقشاتنا الجدية بنتائج تعود بالنفع الشامل علينا وعلى بلادنا .

وكل ما أرجوه هو أن أقرأ فى الاعداد المقبلة من «الكلمة» مقالات وردود ذوى النيات الحسنة يطرحون فيها مشاكلنا الكبرى التى لا يمكن حلها باهمالها ومحاولة خنق من يثيرها ، ولكن بدرسها واعطائها حلولا تفرضها طبيعتنا كامة لها شخصية متميزة ، وتمليها ظروفنا التاريخية التى لا تقبل التقسيم .

ويركان : على أزايكو

عود لموضوع تاريخ المغرب كيف يجب ان يكتب

بقلم : أحمد الفحصى

فى ملاحظة خفيفة كنت أبديتها لمجلة «الكلمة» المحترمة حول مقال «تاريخ المغرب» المنشور فى العدد الاول منها ، كان قصدى فقط لفت نظر الكاتب المؤرخ لعله يراجع منهجيته الغربية التى سلكها لابراز تاريخ المغرب الحق ، مقتفيا أثر أولئكم المتسلطين على تاريخ الشعوب وحضاراتها .

ولم أفكر مطلقا فى أن أخوض معه فى تلك المتاهات الواسعة التى يظهر أن صاحبنا مفتون بها الى حد كبير ، ولا فى هذه الجدليات العنترية التى ظهرت فى مقالة : «رد على رد» الذى طلع به فى العدد الثالث من المجلة المذكورة .

وأيضا فانى لما سطرت تلك الملاحظات البسيطة لم اكترث لشخصية كاتب المقال ولا لمكانته ووزنه فى الحياة ، بل وجدتنى أمام كلام مقلوب ومفضوح حاولت أن أضعه فى اطاره الحقيقى مبرزا أصوله ومنابعه ، وموضحا مدارسه الكبرى التى انبثق منها قديما والتى ما زالت تمده وترعاه اليوم .

ورعيا لذلك فانى سأتابع بحول الله ، كشف تلك الملامح الخطيرة التى توحى بها فقرات موضوع هذا المؤرخ الواحدة تلو الاخرى .

زعم الكاتب «**أن تاريخ المغرب غير موجود . معللا ذلك بان ما وجد منه كتب تحت تاثير أحد التيارين : تيار العنصر العربى الذى جاء بالدين الجديد ، الاسلام ، وتيار العنصر الاوربى الذى حمل معه الاستعمار لبلادنا » .**

ولئن كنت أشرت الى هذه الفقرة آنفا أثناء ملاحظتى العامة لفلسفة مفهوم البحث ، فانى هنا سأحاول شرح أبعادها ومراميها التى قد يكون المؤرخ أغفلها فى غمرة هذا الاعتزاز بشخصيته أولا ، وببحوثه التاريخية ثانيا .

والشىء البديهى الذى يجب أن ندركه مسبقا ، ان من عوامل الهدم فى التاريخ المعاصر للامة العربية الاسلامية ، سقوط كثير من أبنائها المثقفين فى أحضان التضليلات التى يصدرها التغريب وانسياقهم وراءها بحماسة قوية ، واندفاع جنونى ، وبهذا برزت أعراض شاذة فى وسط هؤلاء حيث احتجبوا عن تاريخهم المشرق فى زوايا تلك التضليلات الماكرة ، وبذلك أيضا ضلوا الطريق

وفوتوا على حضارتهم طاقات هائلة كان حريا بها أن تتجه الى بناء أسس سليمة لتاريخ بلادهم وحضارتها .

وهكذا وفى وضعية غير طبيعية اتجهت عناصر من جيلنا الطموح اتجاها منحرفا عن أهدافها لتعمل فى صفوف المناوئين لتاريخ الشعوب والامم ، تهدم الاركان ، وتقتلع الاسس ، وتطمس المعالم حتى أصبحنا نواجه هذه النماذج المائعة من شبابنا وهى تضرب الذكر صفحا عن الفكر العربى الاسلامى الخلاق وما يشرق به من مبادىء ونظريات متجاوزة عنه الى استلهام آراء غريبة تريد أن تخلق منها صورة تاريخية وحضارية لبلادنا وأمتنا .

ان جيلنا هذا لاعجابه بكل معطيات الحضارة الغربية ، والفكر الغربى ، ولارتباطه بهما ارتباطا وثيقا يجد نفسه مهما حاول الانعتاق متورطا فى دوامة من المفاهيم الشاذة والمستوردة من هنا وهناك ، كما حكم على نفسه بالعزلة والبعد عن حظيرة الفكر الاسلامى العربى ومقاييسه المثلى ، يلازمه ذلك فى كل شىء حتى فى فهم ذاته وكيانه ومقوماته الاساسية .

ان على جيلنا اذا ما أراد أن يكتب تاريخه أن يتصور :

أولا — أننا أمة عريقة لها شخصيتها الخاصة ، ولها كيانها المميز ، ولها مقوماتها الاصيلة . ولها فوق هذا كله مفكروها ومؤرخوها لا على المستوى العربى فحسب ، ولكن على نطاق الفكر الانسانى الشامل .

ومغربنا منذ أن التحم تاريخه بالامة العربية الاسلامية وهو يصادم التيارات والاحداث كما يواجه الغزو الثقافى والفكرى دون أن يفت ذلك فى عضده أو يسبب فى ابعاد تاريخه عن تاريخ الامة العربية .

ثانيا — ان تاريخنا العربى الاسلامى فى المغرب حرى بأن يكون تاريخنا وحسب ، وهذا التاريخ ليس مجالا للايهام والتشكيك بل هو مدون ومكتوب بأحدث الاساليب وأوضح الطرق وبكل لسان ، وان الدعوة المغرضة الزاعمة بعدم وجوده ، باطلة ومختلقة فى أصولها ومفاهيمها ، خاصة اذا استعرضنا تلك المؤلفات العديدة والضخمة التى دونت فى حضارة المغرب وتاريخه قديما وحديثا وبيد أبنائه الكرام ابتداء من المراكشى الى ابن خلدون والناصرى السلاوى

واضرابهم ممن لهم صيت فى هذه المجالات وسارت بشهرتهم الركبان .

يضاف الى ذلك فى عصرنا الحاضر هذه المجلات العلمية السائرة التى ساهمت بقسط وافر فى ابراز واقع تاريخ المغرب وأسس حضارته ، تصدر منذ مدة وهى طافحة بآراء المؤرخين المغاربة وغيرهم تعرض فيها الافكار والمفاهيم الحضارية بأسلوب جديد ، ومنطق عصرى رائع ، بين أيدينا منها اليوم على سبيل المثال ، دعوة الحق ، البحث العلمى ، الثقافة المغربية ، آفاق ، مجلة تطوان ، اللسان العربى اعداد السنة العشرة ، مجلة «الفكر» التونسية ، الثقافة والاصالة الجزائريتان وغيرها مما يجد القارىء المنصف فيها الاقناع الكامل بأن تاريخ المغرب بخير والحمد لله ، وان تراثنا الحضارى والتاريخى يتمثل فيما خلفته لنا عصورنا الاسلامية المشرقة ، وهو الذى يجب أن نفخر به اذا كان ولابد من فخر ، لان تلك العصور هى التى تظهر شخصيتنا كأمة ذات تاريخ مجيد ، وحضارة عريقة .

وبهذا مع التراث العربى الاسلامى العام الذى هو تراثنا لم تعد الحجة قائمة لاولئكم الذين يتبررون بوجود فراغ فظيع فى هذه الميادين وان على المرء اذا ما حاول أن يفهم تاريخ المغرب الحقيقى فما عليه الا أن يبحث عنه فى عصور التاريخ الاولى مع مشوهى الحضارات خضوعا لارائهم الحاقدة التى ما كان هدفهم من ابداعها ونشرها بين أبنائنا الا تشويه المعالم ، وطمس الاسس والاركان لتاريخ هذه الامة أو تلك .

ان الواقع السىء الذى نقاسى منه أولا وأخيرا هو فقدان الاصالة عند أجيالنا المثقفة ، وعندما تنعدم الاصالة عند أمة ، أية أمة كانت تلتصق مدارك أبنائها بما عند الآخرين محجمة عن كل تفاعل حضارى يكفل لها تحقيق الشخصية ، ويكمل لابنائها آفاق العقل والفكر اللذين بهما تصل بالانسانية الى أهدافها فى اقامة حياة سعيدة وعالم أفضل .

ان الحقيقة الثابتة التى يجب الا نغفلها ، ان موجات الاستعمار الغربى منذ القديم تخطط فى دهاء ومكر للقضاء على روح الفكر العربى الاسلامى بالمغرب ولقد نجحت فى ذلك أكبر نجاح حتى أصبح اليوم محاطا به من كل جانب ، ووجد نفسه فى موقف الدفاع عن ذاتياته ووجوده بكل الوسائل .

ان ظاهرة غريبة كما قلت غزت عقول ناشئتنا غزوا يستحيل معه التخلص من هذا الجو المشحون بالافكار المسمومة والمقفرة من كل أثر للثقافة العربية والتوجيه الاسلامى الا ما نفثه فى روعها الايحاء الاستعمارى من كل تشكيك وكل حقد ، وباستثناء ماشحنه فى أدمغتها وعقولها من كل قلب للحقائق وتشويه للمعالم .

لقد نسى جيلنا الحائر ذاته ، وفقد مع ذلك منهجه فى الحياة ، واستسلم لهذه الضغوط الحضارية المفتعلة فانسلخ بذلك عن اصالته ، وتاريخه ، وحضارته ، دونما ارادة أو حول وقوة . على أن تاريخ المغرب واتجاهه الحضارى منذ الفتح الاسلامى العربى وهو سليم البنيان مشرق المعالم ، نظرا لانصهاره فى التاريخ العام للامة الاسلامية كما أسلفنا ، وأيضا للتنشئة الجديدة التى جاء بها ذلك الفتح العظيم والتى أمدته بأسباب الخلود والقوة .

واذا كان التاريخ فى مفهومه الحقيقى ليس الا تنشئة شعب ما وارادته فى واقع معين وزمان معين فان تاريخ المغرب ، وبكل تجرد ، يبرز ابتداء من اندماجه فى تاريخ الامة العربية واحتضانه لحضارتها وفكرها . وكل فترة تاريخية غير هذه يريد البعض أن يلصقها به هى مرفوضة واقعيا ، وتاريخيا ، ومنطقيا ولانجد هنا أحسن من رأى الاستاذ الكبير السيد أنور الجندى فى احدى مقالاته ، لانه عنوان صادق لما نحن بصدده . قال الاستاذ :

«ان التمرد على تاريخ العروبة والاسلام لايخرج عن كونه احدى المحاولات الدنيئة لاقامة حواجز التشكيك والتحقير بين خلف المسلمين

وسلفهم مما قد ينتج عنه تمرد فكرى ينتقل من جيل الى جيل عسى أن يؤدى الى تجريد الدعوة الاسلامية والحضارة العربية من الاصالة والوزن التاريخيين فتصبح وكأنها مذهب من المذاهب الحديثة ، أو عقيدة وضعية متطورة ليس لآخرها صلة بأولها .. .

وهذا واقع مر يصوره الاستاذ هنا ، بل هو تحذير صارخ موجه لهؤلاء المغرورين من انصاف المثقفين الذين يحلو لهم أن يأنسوا برضى الشهرة الزائفة وثناء الناس عليهم والحصول على ألقاب علمية هزيلة ولو كان ذلك على حساب تاريخ أمتهم وحضارتها ، هؤلاء الناس الذين **ما زالوا فاقدى الكيان السليم** ولو تظاهروا بأكثر من مظهر ، ونطقوا بأكثر من لغة .

أما واقع تاريخ المغرب الحق وحضارته السليمة فاذا كان الشاعر العربى الاصيل يقول :

أبى الاسلام لا أب لى سواه
اذا افتخروا بقيس أو تميم

فكل المغاربة على دربه سائرون قائلين : **تاريخ الاسلام تاريخنا وليس لنا تاريخ سواه .**

الرباط ـ أحمد الفحصى

مجلة الكلمة عدد 4 مايو 1972

حينما يحتقر تاريخنا وتداس كرامتنا

بقلم : صدقى على أزيكو

يبدو أن السيد الفحصى ما يزال يطارد أفكارى بالتزام فضح نواياه ، ونوايا من دفعوه الى ذلك ، وحتى تكون الامور واضحة منذ البداية ، أذكر أن هذا الاتجاه المغرض لم يعد يخفى على أحد . أما طريقته فى التضليل ، فهى واضحة كل الوضوح. تعتمد على تحريف ما قلت ، وتفسيره تفسيرا ذاتيا هادفا ، والقاء ستار من التبتل وخليط من الخوف المصطنع على الامر الواقع الذى اعتبره مزيفا .

وحتى أكون منصفا تجاه الاخ المحترم ، سأنطلق أولا من فلتاته التى جاءت متفرقة رنانة فى رده الذى نزل به الى مستوى الغير المنحط ، ثم ألقى نظرة سريعة على مسألة ، بدت لى ضرورة وفرصة وضعها أمام أنظار القراء ، وهى مسألة موقف الاسلام من التاريخ .

لقد اتهمنى الاخ — من بين ما اتهمني به — بممارسة الفلسفة ، فلسفة التاريخ . الشىء الذى أعتبر نفسى بعيدا عنه فى الوقت الحاضر على الاقل . وحمل على — انطلاقا من هذه التهمة — كما كانت الكنيسة تفعل فى القرون الوسطى ضد كل من قال : ان الارض ليست مركز الكون ، أو انها تدور ... أما الذى حمله على ذلك ، فلأنه — فى اعتقادى — ما يزال يؤمن بأن التاريخ ليس الا جملة خرافات وأساطير أقوام همجية وثنية « غير مرغوب فيها جملة وتفصيلا » على حد قوله ، بالنسبة للجزء القديم منه ، وسلسلة من الفتوح والغزوات ، وسير الاسر الحاكمة المتوالية ، كتب عنها « مؤرخون » رسميون — طبعا — كما كان ينبغى ويستحب ، بالنسبة للجزء الآخر منه . أما اذا تجاوزت الكتابة التاريخية تلك الحدود الضيقة ، وأصبحت تبحث عن الاسباب والدوافع العميقة لكل حركة تاريخية ، عسكرية كانت أوسياسية أو دينية، وعن النتائج التى تمخضت عنها ، أو التى يمكن أن تستنتج منها ، فلابد أن تزعج هذه « الفلسفة » السيد الفحصى وأمثاله . ويرفعوا علم الصليبية ، الذى داسته أرجل التطور فى أوربا ، ومزقته أيدى النهضة الاسلامية فى الشرق ، ضد فلسفة التاريخ ، والحرية الفكرية بصفة عامة .

ان الاخ يبحث هذه المرة عن «تاريخ المغرب القويم» ، عن «كياننا وذاتنا وتاريخنا» ، عن «قومية المغرب» عن «تاريخ أجدادنا» .. اننا نبحث اذن عن نفس الضالة . وهذا البحث هو الذى دفعنى الى كتابة ما أكتب وحتى لا أكون متسرعا ، لابد من أن أتساءل عن مفهوم «تاريخ المغرب القويم» عند صاحبنا . هل هو هذا التاريخ المبتور الذى يلوح به ممزقا مجزءا ..؟ عن مفهوم «كياننا وذاتنا» أهو هذا الكيان وهذه الذات اللذان يمقت ويحتقر جذورهما ؟ عن «قومية المغرب» أهى هذه القومية المغربية التى لا يكاد يتصورها قائمة متميزة عن غيرها ، ويرفض كل مقوماتها ..؟ عن «تاريخ أجدادنا» من هم أجدادنا فى نظره ؟ أهؤلاء «القردة الخاسئين» الذين «انحسروا مع فولكلورهم النحس» كما وصفهم ؟ نعم ! هذه هى مفاهيم تلك العبارات التى أوردها الفحصى قصد التزييف والتضليل . هذه هى أفكار مغربى يلبس لباس رجل دين ويعظ — باسم الاسلام — فى المساجد ، هذه هى أفكار مغربى «واع» يدعى حب وطنه ، ويخاف على كيانه فى حاضره ومستقبله ! هذه هى أفكار مغربى مسلم (لم يتأثر بالافكار الاستعمارية) ، أفكار تفزع قلب كل مغربى واع حقا يحب وطنه ، ويغار على تاريخه الحقيقى ، وينشد حقا بناء مستقبله على أسس متينة واضحة ، **أفكار أقول لها بكل قوة : لا! بل واستنكرها استنكارا واحتقرها احتقارا ...**

يريد الاخ أن يكتب تاريخنا من زاوية جديدة : ولكن ما هى هذه الزاوية الجديدة التى يريدها انسان ينشد هدم المتاحف، ويرفض حضارتنا القديمة ، ويحتقر أمتنا فى كيانها ؟ هذه الزاوية التى شوه ويشوه كل من نظر منها الى تاريخنا .. قديمة ، وما نزال نئن تحت نيرها البغيض رغم بداية تضعضعها .. هذه الزاوية التى فرضت علينا توجيها تاريخيا معينا ، هدفه قتل كل روح نشيطة وفعالة ، ووأد كل عاطفة حية تربطنا بماضينا المجيد ، وتدفع بنا الى الامام، وخلق كل مركبات النقص فى نفوسنا ، وتنمية احتقارنا لعروقنا وأجدادنا ، وتضخيم شعورنا باليتم والبهتان والضيم والتفاهة ... هذا الاتجاه الذى نلقاه فى كل زاوية من زوايا مدارسنا ، ونقرأه صباح مساء على أعمدة جرائدنا .. هو واحد من مجموعة عوامل أعطتنا أجيالا مائعة منحلة ، فقدت ثقتها بماضيها ، وأملها فى مستقبلها ، وتأكدها من شخصيتها . فماذا ينتظر يا ترى من أجيال تلك صفاتها ؟ لا أكثر مما نراه الآن من بوادر الانسلاخ عن كل أصالة ، والانجراف مع كل ريح غربية قليلا ما تمطرنا خيرا ، أو شرقية جافة مغبرة تسىء الى أنوارها السالفة .

هذا التوجيه الذى يسهل الآن اكتشاف مراميه وأهدافه ، يمكن اختصاره فيما يلى : استئصال كل ما هو أصيل فعلا بتشويه وتزييف الحقائق التاريخية ، باستغلال الجهل العام بتاريخنا وبروح الاسلام السمحة . والا فلماذا هذه الجملة الهستيرية ضد تاريخنا القديم ؟ هذا التاريخ الذى لا يتناقض فى شىء مع تاريخنا الاسلامى ، بل ينبغى أن نعتبر هذا الاخير امتدادا ارتقائيا له. اذ تاريخ أمة ما ، هو تاريخها الكامل بغض النظر عن كل الحوادث والملابسات التى تعرضت لها أو قد تتعرض لها ، ودور المؤرخ الوطنى ، هو محاولة الوصول الى الحقيقة كما كانت معاشة من الداخل لا من الخارج ، فاذا كان الناس يرفضون أن يكون لنا تاريخ فيما قبل القرن السابع ، فان التاريخ المابعد القرن السابع تاريخنا بدون منازع ...

ان هذا الفزع من الماضى يكاد يفضح الدوافع اليه ، ويكاد الزيف ينحسر عنه عطاؤه — الا فلتنكشف الحقيقة ... وهذا شيء حتمي لانها حقيقة حقيقية لا يمكن تغييرها ، ولا يمكن دحضها عقلا، رغم كل الطوارىء، ولذلك فاننا سنلقاها أبدا أمامنا مهما حاولنا انكارها وعدم الاعتراف بها . واذا كان الامر كذلك فسنؤمن بها فى يوم من الايام ، وفى هذه الحالة سيكون ايماننا حقيقيا ،

الفولكلور النحس والقردة الخاسئون!

حينما بصق الاخ الفحصى هذه العبارة ، كان قد بلغ ذروته «السادية» واذا كان ما بعدها — وهو قليل جدا لا يتجاوز ثلاث فقرات — قد جاء أنفاسا متدحرجة متقطعة ، فلانه قد حمل هذه العبارة كل حقده ومقته الكامنين وبذلك بدت بارزة من بين ما مهد به لها من تفاهات — كالعمود الفقرى فى بنائه المضعضع .

ومع أن مثل هذه العبارات — وهى كثيرة جدا — التى يقصد منها الحط من معنوية وشخصية هؤلاء الذين نعتهم «الفقيه» الفحصى بالقردة الخاسئين ، وبأصحاب الفولكلور النحس أقول رغم أن هذه العبارات قد بلغت بالمغاربة — من فرط سماعها ومعاناتها تصريحا وتلميحا — درجة الغثيان ، فانها تستحق شيئا من الالتفات ، لاننى أظن أن الوقت قد حان لتجاوزها ، ولان مفعولها السحرى ، الذى استغل مدة طويلة فى هذه البلاد ، لم يعد يخدر الناس؛ بل أصبح ينبههم بمعجزة كبيرة .

نعم ، لقد «فلكر» الناس ثقافتنا فى انتظار قبرها بصفة نهائية . وحتى لا ينتبه البلداء والسكارى من هؤلاء القردة الخاسئين ، ارتأى الاذكياء حصرها أولا فى نطاق فولكلور يتمتع «بصحة جيدة» ربحا للوقت الذى

يعمل بسرعة كبيرة ضد هـذا «الفولكلور».

ان كلمة «فولكلور» أيها الصديق لها في الدول الراقية، معنى محدد، ولهـا عندنا معنى آخر هـو أقبحها جميعا، ان ما تسميه – أيها الاخ – فولكلورا، اقتداء منك بأساتذتك. هو ثقافتنا وحضارتنا، والاطار الذي يميز شخصيتنا ظاهرا وباطنا. ان ما تسميه فولكلورا هو تراثنا الذي أورثنا اياه ماضينا، وفيه تكمن بذور مستقبلنا ... ان أي ثقافة ليست فولكلورا بالضرورة، وإنما الذي «يفلكرها» هو عدم اهتمام أهلها بها وانجرافهم وراء ثقافات مستوردة بطريقة أو بأخرى. أو مفروضة بأي نوع من أنواع الضغط. بما فيها الضغط النفساني كعبارة «الفولكلور النحس والقردة الخاسئين» التي توجت بها مقالك. كما أنه لاتوجد ثقافة متفوقة في حد ذاتها، بل الظروف التاريخية والبشرية هي التي تساعد ثقافة وتقتل أخرى. واذا كان ذلك صحيحا، الى حد كبير، فيما مضى حينما كان الوعي التاريخي لدى الانسان في سبات عميق .. فانه لم يعد من الممكن وقوع مثل ذلك في زمان وعى فيه الناس معنى قوله تعالى: **«ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم»** سورة الرعد، آية 11.

وقوله سبحانه: **«وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»** سورة **الحجرات**، آية 13. في وقت أصبح فيه الانسان يدرك أن التاريخ من صنعه، وأنه باستطاعته توجيهه، والوقوف – بفعاليته – في وجه بعض حتمياته التي يرى أنها لاتخدم مصالحه، فاذا انحسرت ثقافة ما الى مستوى **الفولكلور أو أدنى فلانها فشلت سياسيا ليس الا.**

وحتى لا أطيل، سوف لا أضيف شيئا آخر في خصوص هذا الموضوع. موضوع ثقافتنا الوطنية التي ما تزال تبحث عن نفسها. وأرجو أن تتاح لي فرصة التحدث عنه في ظروف أخرى وعلى مستوى أرقى.

البادية والحاضرة المغربيتان:

هـذه الفكرة التي حاولت أن ألقي عليها بعض الاضواء، في مقالي الذي نشر في العدد الثاني من «الكلمة» والذي حاولت فيـه أن أبرز المشكل – مشكل التباين الكبير بين بوادينا وحواضرنا، لا في الحاضر فقط ولكن في الماضي أيضا – بكل موضوعية وحسن نية. استغلها الفحصي استغلالا رجعيا، ونزل بها من المستوى الذي نريده لها، الى مستوى أقل ما يمكن أن يقال عنه، هو أنه منحط. لقد وضعت المشكل للمناقشة العلمية الموضوعية، وتوجهت بالخصوص الى من له اطلاع على تاريخ المغرب، ومن تمكنه ملاحظته اليومية من النفوذ الى عمق وخطورة الموضوع بكل أبعاده.

الا أن السيد الفحصي أبي الا أن ينفث مرة أخرى، لهاته. وكان شعاره هذه المرة هو «الظهير البربري»، **هـذه العبارة التي جعل منها بعض الناس شبحا مخيفا يحتفلون بذكراه كل سنة ويستعملونه سلاحا سياسيا ونفسانيا – من بين أسلحة أخرى – لتغطية ما هم بصدده من تزييف الحقائق، ان هذا الظهير الذي ارادوا له أن يكون مشهورا، والذي ألصقوا به صفة «البربري» وكانه من وضع هؤلاء الذين أصبح يطلق عليهم لقب «بربر» لا لشيء الا لان لغتهم «عبارة عن بربرة غير مفهومة» عند بعض المؤرخين على الاقل.**

وكـان جميع اللغات، التي أراد الله لها أن تكون مختلفة متنوعة، لابد أن يفهمها شعب معين «متفوق مختار»، والا فهي بربرة أو سأسأة أو خاخاة ... **اقول ان هذا الظهير الذي كان ينبغي أن يطلق عليه اسم «الظهير الاستعماري» لانه من وضعه، ولخدمة مصالحه، يدخل في نطاق السياسة الاستعمارية المعروفة الآن، والتي استعملها في مناطق اخرى من العالم الخاضع له. ان هذا الظهير .. بعد أكثر من اربعين سنة من صدوره وفشله – ما يزال يذكر به – في مغربنا المستقل – شعب بأتمه قرفة لهم بذنب لم يرتكبوه، ولم يفطن هؤلاء المذكورون بأنهم، بعملهم هذا يمكن اعتبارهم امتدادا للوجود الاستعماري، واستمرارا مفضوحا لسياستهم العنصرية لماذا هـذا التذكير؟ أما لانهم يشعرون بمركب نقص كبير. أو لانهم يخافون من تغيير الامر الواقع، أو لان «في بطونهم عجينة»... الا أنه يبدو أن الهدف الرئيسي – وهو لا ينسخ الدوافع طبعا – هو، كما قلت سابقا، اشعار الناس بالخجل والخزي، كلما فرضت عليهم حياتهم اليومية: في الشارع، والمدرسة، والحي، في البادية، والحاضرة، أسئلة موضوعية تمتد الى أعماق جذور مجتمعنا.**

وحتى أكون واضحا كل الوضوح أنبه السيد الفحصي والذين سمح لنفسه أن يكون بوقا لهم – شعوريا منه أو لا شعوريا – الى أن عهد الوصاية، بكل أنواعها، قد انتهى وانقضى: الوصاية الدينية، لان محمدا رسول الله هو خاتم الانبياء، ولانه لم يكن قط وصيا، ولا ينبغي أن يعتبر كذلك والقرآن واضح في هـذا الموضوع «ان عبادي ليس لك عليهم سلطان...» سورة الحجر، آية 42. «وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل» الانعام 107. «ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» النحل 125. ويبدو أن أكثر من الاربعة عشر قرنا الماضية كافية لان تجعل هؤلاء «القردة» مسلمين باستطاعتهم أن يفهموا حقيقة الاسلام بأنفسهم، انطلاقـا من طبيعتهم وظروفهم ومصالحهم التي لا تتنافى مع مبادىء دينهم الحنيف، لا انطلاقا مما يفهمه به المحتالون المفرضون.

والوصاية الثقافية، لان هـؤلاء «القردة» تجاوزوا الآن – وباعجوبة – قضبان الاقفاص الحديدية التي وضعوا فيها منذ زمان، وطرقوا بقوة وايمان نفس الابواب التي طرقها الذين جعلوا أنفسهم عليهم أوصياء، وشربوا من نفس المنابع، وأول منابعهم، دينهم الحنيف الذي ضمن لهم المساواة والكرامة والحرية، وحثهم على الثورة ضد كل طغيان عنصري. وهذا الشيء طبيعي لان **«العقيدة الاسلامية بذاتها عقيدة متحركة، لا تملك السكون، فما أن تاخذ مكانها الحق في النفس حتى تطلقها ... تطلقها في كل اتجاه»** محمد قطب – معركة التقاليد ص 146. ولانه **«عندما تاب الناس الى اله واحد، امتنع أن يعبد الناس الناس؛ ووقف الجميع رافعي الرؤوس امام بعضهم البعض. يوم انحنت كل الرؤوس للاله الواحد القاهر فوق عباده، وانتهت أسطورة الدماء المتفاضلة، والاجناس المتفاضلة، ووراثة الشرف والحكم والسلطان»** سيد قطب – هذا الدين ص. 53. «وجاء الاسلام والكرامة **الانسانية وقف على طبقات معينة، وعلى بيوت خاصة وعلى مقامات معروفة.. أما الغثاء** (القردة الخاسئون في عرف الفحصي وحزبه) **غثاء** الجماهير، فهو غثاء! لا وزن له **ولا قيمة ولا كرامة! غثاء!!!**» وقال الاسلام كلمته المدوية: ان كرامة الانسان مستمدة من «انسانيته»، ذاتها لا من أي عرض آخر كالجنس أو اللون أو الطبقة أو الثروة أو المنصب الى آخر هـذه الاعراض العارضة الزائلة.» سيد قطب – هذا الدين ص. 79.

«... ويخيل لي أن الله جل جلاله ينير السبيل أمامنا تدريجيا الا أن الاسلام ليس قومية ولافتحا أو استعمارا، وانما هو رابطة أمم، تسلم بما بينها من حدود صناعية وتشعربما بينها من فوارق قصد بها تسهيل التعارف على كل شعب، لا تقييد الافق الاجتماعي لاعضاء هذه الرابطة» محمد اقبال – تجديد التفكير الديني في الاسلام. ص. 183.

كـل هذه الامثلة وغيرها كثير، انطلقت من مبادىء القرآن وجعلت منها أساسا. واذا كان القرآن قد جعل اختلاف البشر في لغاتهم والوانهم آية من آيات الله: «ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين» الروم 22 فـان صاحبنا الفحصي قد جعل منه مصدر احتقار للناس وازدراء لهم، وذريعة لخنق انفاسهم، وعبر بذلك عن قصوره عن ادراك معنى كلمة «آية»

من آيات الله . وبالتالى عن مخالفة صريحة لروح الإسلام . ثم أن هذا الموقف الذى يهين كل مغربى مغربى ، لا يمكن أبدا أن نمره تحت صمت الاهمال أو التجاوز ، خصوصا اذا قدرنا نتائجه السيئة القريبة والبعيدة على شعب بأتمه ، ولكن ينبغى استنكاره وعزل أصحابه فى قفص الاتهام ، وليتأكد هؤلاء أن الشعب المغربى لن ينسى أبدا هذا الموقف العدائى من أخص خواصة وأعمق عواطفه .

الاسلام والتاريخ :

ليس مقصودى هنا أن أستوفى هذا الموضوع حقه ، وأجمع أطرافه وأتعمق تفاصيله ، لانه أوسع مجالا وأخطر شأنا ومرمى ، ولكن هدفى هو الفات نظر القراء الكرام الى أن ديننا الحنيف دين انسانى شامل ومحيط ، وأنه يعتبر الانسان منذ خلق خليفة الله فى الارض ، وليس ابتداء من فترة معينة من حياته الطويلة جدا فقط ، واذا كان الجهلاء «المسلمون» يقفون موقف عداء من الخليقة وتاريخهم قبل الاسلام ، فلانهم قاصرون عن فهم سر الحكمة الالهية التى نجدها بصريح القول فى أكثر من آية قرآنية : « وقد خلقكم أطوارا » ، «**واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» البقرة** 30 . وكان جوابالله سبحانه وتعالى واضحا قاطعا : «**انى أعلم ما لا تعلمون**» نفس الآية . «**ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا**» يونس 99 . «**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ..**» السجدة 13 .

ان الاسلام يعتبر الانسان وحدة **لا تتجزأ ، بغض النظر عن الاطار الزمنى والمكانى : «يا أيها الناس اتقو ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء»** النساء 1 . «أيها الناس ، ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب...» حديث شريف ، الا أن وحدة الاصل ، لا تعنى فى نظر القرآن انتفاء الفروع واختلافها ، وهذا الاختلاف لا يتعارض مع تلك الوحدة . بل يضفى عليها هالة من جلال قدرة الله ومشيئته «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ...» هود 118 .

واذا كان الاسلام يعتبر الانسان جزءا لا يتجزأ من محيطه الطبيعى ، لانه منه واليه ، بل يحثه على الالتفات اليه وتأمله ودرسه ، وأعطاه حرية التصرف وحمله مسئولية أعماله ، فانه يعتبر مراحل تطوره سلسلة مرتبطة ومتماسكة ، تهيىء كل حلقة منها لاخرى أرقى . هذه السلسلة من أعمال الانسان منذ خلق ، وهذا الصراع الدائم بين الانسان والطبيعة الخارجية ، وما نتج وينتج عنه من تغير وتحول فى وسطه الطبيعى وفى طبيعته الداخلية ، هو ما نسميه اليوم بالتاريخ والحضارة ، وهذه الحضارة وذاك التاريخ هما اللذان يحثنا القرآن على التأمل فيهما ، واتخاذ العبرة والاستفادة منهما لبناء حياة أفضل . «قل سيروا فى الارض، فانظروا كيف بدأ الخلق» العنكبوت 20 . «**قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» آل عمران** 137 ، «**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ان أخرج قومك من الظلمات الى النور ، وذكرهم بايام الله ، ان فى ذلك** لآيات لكل صبار شكور» ابراهيم 5، وفى هذا المعنى قال محمد اقبال : «**والتاريخ أو بتعبير القرآن ، أيام الله ، هو ثالث مصادر المعرفة الانسانية ، بناء على ما جاء فى القرآن ، فمن أهم أصول التعليم التى جاء بها القرآن ، ان الامم تحاسب بمجموعها ، وان العذاب يعجل لها فى الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات ، ولكى يؤكد القرآن هذا المعنى فانه دائب الاشارة الى الامم الخالية ، داعيا الى الاعتبار بتجارب البشر فى ماضيهم وفى حاضرهم**» . تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص. 159. وقال فى خصوص الآية الكريمة «ولكل أمة أجل» الاعراف 34 : «وهذه الآية الاخيرة مثل من أمثلة الاحكام التاريخية العامة ، يتجلى فيها التعيين والتحديد ، وهى فى صيغتها البالغة الايجاز توحى امكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية ، وعلى هذا فمن يزعم أن القرآن يخلو من بذور المذهب التاريخى يكون فى ضلال مبين» نفس المرجع أعلاه ونفس الصفحة .

ولم يكتف القرآن بهذا الحد بل «وضع لنا قاعدة من أعمق مبادىء النقد التاريخى» والتى تتلخص فى التدقيق فى رواية الحقائق التاريخية، كيفما كان مصدرها ، وعدم التسليم بها حتى تدرس دراسة عميقة ، فاذا كانت تنطبق مع الواقع التاريخى الذى انبثقت عنه ، وقبلها العقل الناقد ، أخذ بها والا دحضت وزيفت. فى هذا المعنى يقول الله تعالى : «**يا أيها الذين آمنوا ، ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ...» الحجرات** .

ان الاخطاء التى ارتكبها المؤرخون، **الاجانب منهم على الخصوص ، فى حق تاريخ المغرب كثيرة سواء كان ذلك** عن قصد منهم ، أو عن غير قصد ، تضليلا أو جهلا . لذلك دعوت ، وما أزال أدعو الى مراجعة تاريخنا على أضواء المنهج العلمى الحديث فى التاريخ . والذى لم ينتبه اليه الا القليل من مؤرخينا القدماء ، أقول لم ينتبهوا اليه ، لان القرآن وضع بذوره بالنص منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .

من المؤرخين المسلمين القلائل الذين استفادوا من القرآن فى تفتيق نواة الدراسات التاريخية المنهجية ، والارتفاع بها الى مستوى علم يتجاوز فى عمقه مجرد رواية مبسطة للاحداث، نجد ابن خلدون فى المقدمة ، وأول ما انطلق منه ابن خلدون هو :

1 ـ التسليم بوحدة التاريخ الانسانى ، وبمفهومه الواسع الشامل الذى أصبح الآن معروفا لدينا . فهو يقول : «**اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامم ..**» المقدمة ص 9 (مطبعة مصطفى محمد ـ بدون تاريخ) . ونجده فى مكان آخر يتأسف على ما فقد من تراث الانسانية القديم ، دون أى استثناء جنسى أو دينى ، فيقول : «**فالعلوم كثيرة والحكماء فى أمم النوع الانسانى متعددون ، وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل، فأين علماء الفرس التى أمر عمر رضى الله عنه بمحوها عند الفتح ، وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها ، وأين علوم القبط ومن قبلهم ، انما وصل الينا علوم أمة واحدة وهو يونان تكلف المأمون باخراجها من لغتهم ..**» المقدمة ص38.

2 ـ اعتبار التطور سنة وحقيقة واقعة ، وفى هذا الصدد يقول : «ومن الغلط الخفى فى التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال فى الامم والاجيال بتبدل الاعصار والايام .. وقد كانت فى العالم أمم النمرس والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل ، وكانوا على أحوال خاصه بهم فى دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم .. ثم جاء الاسلام بدولة مضر . فانقلبت تلك الاحوال أجمع انقلابة أخرى ، وصارت الى ما أكثره متعارف ... ثم درست دولة العرب وايامهم وصار الامر فى أيدى سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال، فذهبت بذهابهم أمم ، وانقلبت أحوال وعوائد ونسى شأنها وغفل أمرها ..» المقدمة ص 28 ـ 29 .

نلاحظ فى العبارة الاخيرة أن ابن خلدون ميز بين العرب كدولة زمانية تحيى وتموت كغيرها من الدول ،

وبين الاسلام كاستمرار وبقاء دون التقيد بأمة من الامم أو جنس من الاجناس أو مكان وزمان محددين .

3 – اعتبار اختلاف طبائع الاشياء باختلاف البيئة المكانية ، وقد أدى به ذلك الى اشتراط معرفة «طبيعة الأحوال» فى كل مؤرخ مؤرخ . لان ذلك يطلعه أو يقر به من الحقيقة ، بل اعتبر ذلك أحسن مقياس يقيس به مادته الخام ، فقال : « .. ومن الاسباب المؤدية له (الكذب فى نقل الاخبار) أيضا ، وهى سابقة على جميع ما تقدم (التشيع ، الثقة بالناقلين ، الذهول وتوهم الصدق : الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع والتزلف لاصحاب التجلة) ، الجهل بطبائع الاحوال فى العمران ، فان كل حادث من الحوادث ، ذاتا كان أو فعلا ، لابد له من طبيعة تخصه فى ذاته وفيما يعرض له من أحواله ، فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال فى الوجود ومقتضياتها ، أعانه ذلك فى تمحيص الخبر ، على تمييز الصدق من الكذب ، وهذا أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض ..» المقدمة ص 35 36.

4 – اعتبار ما وراء الاحداث التاريخية من قوانين عامة ، هدفا للمؤرخ ، وبذلك وضع حدا فاصلا بين التاريخ الحكائى – ان صح التعبير – والتاريخ التحليلى ، بين الحادثة التاريخية كهدف فى حد ذاتها وكوسيلة للتوصل الى الدوافع الحقيقية ، والتى ليست تلك الاحداث الا مظهرا خارجيا لها ، وهاكم عبارته : «ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا فى هذا الفصل ، وهى أن التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر أوجيل ، فأما ذكر الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار ، فهو أس المؤرخ تنبنى عليه أكثر مقاصده ، وتتبين به أخباره» ص 33.

فأيننا الآن من هذه الافكار ، بعد أكثر من ستة قرون من وضعها ؟ يبدو أن الفكر التاريخي فى مغرب اليوم يعاني فعلا من «انتكاسة» كبيرة كما قال السيد الفحصى ، ولكن الشىء الذى لم يخطر له على البال ، هو أن أفكاره فى هذا الميدان تعتبر خير ما يمثل حتى الآن ، هذه الانتكاسة ، لانها لم تصل بعد الى مستوى التفكير التاريخي الاسلامي، الذى بلغ ذروته مع ابن خلدون المغربى فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فاذا كان السيد الفحصى يشعر الآن بالانتكاسة لانني قلت : ان تاريخنا وحدة لا تتجزأ ، وان تاريخنا كتبه الاجانب شرقيين وغربيين على السواء وان تاريخ بوادينا مجهول ، الى غير ذلك من الافكار التى أعتبرها استعمارية مستوردة ، فانه يعبر أحسن تعبير عن انحطاط المستوى الثقافى فى مغرب النصف الثانى من القرن العشرين بالنسبة لهذا المستوى فى مغرب القرن الرابع عشر مع ابن خلدون ، ومغرب القرن السابع عشر مع اليوسى .

ان ابن خلدون من أوائل المؤرخين الاجتماعيين الذين لاحظوا أهمية مشكل البادية والحاضرة فى شمال افريقيا على الخصوص ، وهذه بعض الادلة : «قسم الناس الى بدو وحضر»، «فالبدو أصل للمدن والحضر . وسابق عليهما ..»

«والحضرى لا يتشوف الى أحوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها ..» المقدمة 122 . «البوادى من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار..» ص 153 «اعلم أن لغات أهل الامصار انما تكون بلسان الامة أو الجيل الغالبين عليها» المقدمة 379 .

وابن خلدون من الاوائل الذين رفضوا أن يكتب تاريخ امة بعيدا عنها وعن مشاكلها وأمانيها ، فقال : «.. فاذن يحتاج صاحب هذا الفن (التاريخ) الى العلم بقواعد السياسه وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار فى السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من وفاق أو بون ..» المقدمة ص 28 ،

وابن خلدون من الاوائل الذين نبهوا الى أن ما كتبه الشرقيون على تاريخ المغرب ملىء بالخرافات الموجهة

فقال : «ومن الاخبار الواهية للمؤرخين ، وما ينقلونه كافة فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب انهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى افريقية والبربر من بلاد المغرب ، وان افريقش بن قيس بن صيفى .. غزا افريقية واثخن فى البربر وانه هو الذى سماهم بهذا الاسم .. وانه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ، ومن هذا ذهب الطبرى والجرجانى والمسعودى وابن الكلبى والبيلى الى أن صنهاجة وكتامة من حمير وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح ... **وهذه الاخبار كلها بعيدة عن الصحة ، عريقة فى الوهم والخلط ، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة»** . المقدمة ص 12 ، وقال عن المسعودى «مع أنه لما ذكر المغرب قصر فى استيفاء أحواله» ص 33 .

لا أظن أن السيد الفحصى وغيره – بعد كل هذه الادلة ، التى استسمح القراء الكرام على الاكثار منها مرغما – سيسمحون لانفسهم بتضليل الناس، واستغلال شعورهم والتلويح بكلمات حق فى الظاهر وهم يريدون بها الباطل فى الباطن ، واذا كان هؤلاء غير متمكنين من اتهام ابن خلدون واليوسى بالتأثر بالافكار الاستعمارية فليتأكدوا من أنهم لم يعد مصير بلادنا فى أيديهم فقط .

ان الشىء الذى لم يفهمه بعد السيد الفحصى وأشياعه ، هو أن الاسلام كان دوما ثورة عارمة ضد كل القيم الاستعبادية القديمة ، ومحررا اطلق الافراد والجماعات من كل قيودها الروحية البالية ، والمادية والنفسانية والاستبدادية ، وعادلا جعل المساواة المطلقة قاعدة من قواعده ، والكرامة الانسانية مبدأ من مبادئه ، والحرية أساسا من أسسه.. فاذا كانت عصور انحطاط المسلمين قد حجبت أو مسخت هذه المبادىء كلها ، فان نهضتنا كأمة مسلمة واعية ستكون انطلاقا من هذه المبادىء ...

باريس – أزايكو

ان الموضوع الذى عالجه الاستاذان المحترمان السيد صدقى على أزايكو والسيد أحمد الفحصى جدير بالاهتمام ، وبالرغم من كلمات ساخنة تناثرت فى مقالاتهما ، فان الروح العلمية والبحث عن الحقيقة طغيا على تلك الجمل المعترضة المحمومة التى نرجو ألا يكون لها أى أثر فى عواطف الاستاذين الشابين اللذين يسيران بخطى ثابتة الى قمة المجد العلمي .

واذ تشكر مجلة «**الكلمة**» مساعديها الشابين فاسحة لهما فى المجال مرحبة بانتاجهما – ليسرها أن يجرءا أبحاثهما الهادفة من تلك الكلمات الساخنة التى من شأنها أن تذيب الحقائق وتحرق العواطف .

«**الكلمة**»

في سبيل مفهوم حقيقي لثقافتنا الوطنية

علي صدقي أزايكو

قد يقول قائل متحمس ، عند قراءة هذا العنوان ، اما نزال نبحث عن مفهوم لثقافتنا الوطنية ؟ الم نستقر بعد على حال ؟ وهذا الذي نحن فيه منذ زمان ، الم يتجاوزه النقاش بعد ؟ وقبل هذا وذلك ما لنا لانهتم بما هو أهم ؟ فبدل أن نتيه في فضاء مناقشات لا نهائية ، لم لا ننكب على أمورنا الاقتصادية حتى نسير بمجتمعنا بسرعة وفعالية نحو التقدم والازدهار • والباقي آت لا محالة !

أما عن تجاوز المشكل الثقافي ، فلا أظن أنه طرح بجدية (2) فكيف يمكن تجاوزه اذن ؟ وسنعرف فيما بعد أسباب ذلك •

أما كون المشكل الثقافي اقل أهمية من المشكل الاقتصادي (3) فهذا ما لم يعد يقبله حتى الماديون المتطرفون ، وأكبر دليل على ما أقول ما يهز العالم اليوم من أزمات واضطرابات لا يمكن أن نشرحها اعتمادا على الجانب المادي فحسب بل للمشاكل الثقافية فيها ضلع وذراع ، وحتى الثورات التي قامت على أسس مادية ، اثبتت التجربة أنها ثقافية بقدر ما هي ثورات ضد البؤس والاستغلال والتخلف ••• واذا كان لنا ، أن نفاضل بين هذين النوعين من الثورات ، والذي فصلنا — جدلا — ما بينهما من ارتباط وثيق ، فيمكننا أن نعتبر الثورة الثقافية نوعا أرقى وأعمق ارتباطا بالانسان ••• لانها لا تموت بموت الجوع الحاجة المادية ولانها تبني العلاقات البشرية على جميع المستويات على أسس أرقى وأرق •

اذا كانت الثورة الاقتصادية الحقيقية غير ممكنة اذا لم تواكبها أو تسبقها الثورة الثقافية • واذا كنا نهمل الى حد كبير المشكل الثقافي في بلادنا فمحصولنا — منطقيا — هو لاشيء •

مفهوم الثقافة

هذا المشكل شغل الكثيرين ، ولايزال يحظى باهتمام كبير وليس غرضي الاحاطة بكل ما قيل ويقال في الموضوع ، وانما أريد ان أقدم المفهوم الذي اخترته والذي أظن انه احسن مفهوم للثقافة حتى الآن •

(الثقافة كلمة تعني كل ما لاتقوم حياة اجتماعية دونه من أوان ، ومواد الاستهلاك ، وعقود اجتماعية ، وأفكار ، وفنون ومعتقدات ، واعراف) (4)

واللغة هي الكنز الذي تتبلور فيه المعارف الانسانية ومنها ينبغي أن يكون الانطلاق ، انطلاق كل مجهود هدفه الوصول الى الحقيقة الانسانية •

والجدير بالذكر أن المقصود بكلمة لغة هو معناها المطلق بغض النظر عن كونها متطورة أم لا ، مكتوبة أم شفوية (5) وذلك لان التطور او الكتابة ليسا مقياسين أساسيين في هذا الصدد فكم من لغة بدائية احتضنت قيما انسانية عميقة ، وحملت معارف ما كان التطور البشري ليكون لولا مساهمتها فيه ، وكم من لغة يعتبرها الناس اليوم غير متطورة ، وهي تعبر عن أعمق ما يشعر به متكلمها من بهجة والم ، وحب وكراهية ••• وبامكانها أن تبذ اللغات المتطورة في ميادين كثيرة• (6)

« ومهما كانت الثقافة بسيطة ، أو بدائية ، أو معقدة جد متطورة فهي تكون مركبا واسعا ماديا من جهة ، وانسانياً من جهة أخرى ، وروحيا من جانب ثالث ، والذي يمكن الانسان من مواجهة المشاكل الملموسة والمحددة التي تطرح امامه – هذه المشاكل ناتجة عن كون الجسم البشري عبد حاجيات عضوية مختلفة ولانه يعيش في وسط هو أحسن حليف له لانه يوفر له المواد الاولية لعمله اليدوي ، وهو في نفس الوقت من أكبر اعدائه لانه مليء بقوى تهدده » (7)

المشاكل ذات الطابع الثقافي في العالم

اذا كانت الدول الاشتراكية لا تعاني من المشاكل الثقافية بالمعنى المقصود هنا ، فلانها أوجدت لها الحلول المطلوبة منذ البداية وبدون مركب نقص أو أحكام مسبقة ·

اما الدول الرأسمالية التي نجحت فيها البورجوازية الوطنية ، ففرضت ثقافة معينة ، واهملت الباقي – كما هي الحال في فرنسا وانكلترا وبلجيكا والولايات المتحدة الامريكية فانها رغم ارتفاع درجة تطورها وقوتها ، وقدم تمركزها ، لاتزال تعاني وبعنف من الرفض الذي تواجهها به الثقافات المكبوتة فيها والتي كان الجميع يظن انها ميتة لامحالة – فمشاكل الباسك والبروتون وارلندا الفلامان والهنود الحمر · كلها مشاكل معروفة على المستوى العالمي · (8)

واذا كانت بلجيكا قد وجدت حلا مرنا وواقعيا للمشكل الثقافي فيها والذي لم يمكنها تقدمها الاقتصادي والاجتماعي على مفهوم لم يعد صالحا والذي لم يمكنها تقدمها الاقتصادي والاجتماعي من تجاوزه فان فرنسا ما تزال تحتفظ · وبغيرة كبيرة على مفهوم لم يعد صالحا ·

للثقافة الوطنية والوحدة الوطنية ، وهذا ما جعلها تواجه بالاهمال مطالب سكان بروطانيا واوكستانيا الثقافية على الخصوص ، وضنت الحكومة أن سياسة اللامركزية في الادارة والاقتصاد كافية لحل المشاكل الثقافية في بلادها · الا أن الواقع اظهر أن الامر أعمق من ذلك ، وأن حرية الممارسة الثقافية بمعناها الكامل هي من أعز المطالب التي يرفض سكان الاقاليم المكبوتة ثقافيا التنازل عنها · (9)

كل هذه الامثلة السريعة والخاصة بالدول المتقدمة ، تعبر بوضوح كامل عن عجز التقدم الاقتصادي والاجتماعي عن حل المشكل الثقافي أو تجاوزه (10)

واذا كان الامر كذلك بالنسبة للدول الصناعية ، فان الدول المتخلفة لا يمكنها بحال من الاحوال أن تنمو نموا طبيعيا متزنا بتوجيه كل مجهوداتها نحو التنمية الاقتصادية وحدها ناسية أو متناسية الجانب الثقافي ·

أقول هذا وانا أعرف أن مجهودا كبيرا يبذل الآن في افريقيا السوداء لانقاذ التراث الافريقي الاصيل بما في ذلك اللغات الاصلية رغم تمكن اللغات الاجنبية وانتشارها في جميع مرافق الحياة فيها · (11)

طبيعة المشكل الثقافي في الدول المتخلفة

اذا كانت الدول المتقدمة لم تتخلص بعد من المشاكل الثقافية التي نتجت عن انتشار البورجوازية الوطنية ، واذا كانت انتصاراتها الكثيرة والمتنوعة في ميادين العلم والتقنية والاقتصاد ، لم تمكنها من محو كل

شعور بالاصالة الثقافية لدى المجموعات البشرية التي خضعتها سياسيا واقتصاديا واستلبتها ثقافيا • أقول اذا كانت هذه الدول تعاني حتى اليوم من المشاكل الثقافية ، فان الدول النامية أكثر قابلية بان تعاني منها وبحدة، ذلك لانها لم تعرف الثورة البورجوازية قبل الاستعمار ولان هذا الاخير حين عرفته ، غير العقلية السائدة فيها وفتح المجال أمام البورجوازيات الوطنية. غير أن الظروف التي تحركت فيها بورجوازيات أوروبا وامريكا لم تتوفر لدى البورجوازيات الوطنية في الدول النامية •

ومما لايساعدها كثيرا على أخذ مكان الزعامة في ميدان الثقافة الوطنية اعتمادها مضطرة في الدرجة الاولى على اللغة الاجنبيـة ونمو الوعي التاريخي والثقافي لدى المثقفين الشبان كنتيجة حتمية للصراع الذي يقتسم العالم، والتناقض الموجود بين هذين الموقفين ، اذا أضيف الى عدم وجود لغة قومية واحدة ، وجبن الزعامة السياسية ، وانعدام الفعالية الجماهيرية أو ضآلتها ٠٠ كل ذلك أدى الى خلق أزمة خطيرة ، يعقدها التخلف الاقتصادي والتاثيرات الخارجية بجميع أنواعها •

وبظهور فكرتي الاستعمـار الثقافي والامبريالية الثقافيـة بعد أن تم الاتصال فعلا ، بين أوربا والدول النامية في اطار الاستعمار الفعلي ، أولا ، ثم في اطار تبادل المصالح المختلفة بعد الاستقلال • أقول بظهور هاتين الفكرتين اتخذت أزمة الشعوب النامية بعدا آخر معقدا وحاسما في آن واحد • هذا البعد يتلخص في وجود صراع يتوتر أكثر فأكثر بين الرغبة القوية في تحقيـق تحريـر تام من مستعمـر الامس ، ثقافيـا ولغويا واقتصاديا ، والاستفادة ، في نفس الوقت ، مما حققه من تقدم في جميع الميادين ، قلت عنه بعدا معقدا لان التكافؤ بين الغاية والوسيلة غير موجـود • فالغاية في علـو الطموح ونبله وشفوفه ، والوسيلة لا تكاد ترتفع عن قيود الواقع وعجز التخلف ، وقلت عنه بعدا حاسما لان الموقف الذي سيتخذ يجب أن يكون حاسما والاختبار الوحيد يجب أن يكون في مستوى الطموح ، طموح الشعوب الناميـة الى التحرر والنهوض • وكل من التحرر والنهوض لا يمكن أن يتاتى الا فـي اطار مفهوم محدود واضح للثقافة الوطنية تراعي فيه جميع المعطيات الموضوعية المحليـة لكل بلـد • وتحليل لمفهوم الثقافة الاجنبيـة ، ولطبيعة العلاقـات التـي سترتبطنا بهـا •

لا أنكر أن هذا ليس بالامر الهين ، ولكنه في اعتقادي أحسن مشروع حقيقي في حل المشكل الثقافي في البلدان النامية ، أما اختيار الحـلول السهلة التي لا تربطها بالواقع التاريخي والمعاش جذور فاقل ما ينتج عنها هو البلبلة وعدم الاستقرار ، وقبر كل ابداع أصيـل •

ان الاختلاف والتنوع في ميداني الثقافة واللغة اللذين يعاني منهما كثير من الدول المتخلفة واللذين يعتبرهما الكثيرون من المشاكل العويصة والخطيرة التي تواجهها ، ستتحول باعجوبة الى مصادر غنية متكاملة لثروة هذه البلدان الثقافية ، اذا ما اعترف بهذه المصادر ، واحترمت مقوماتها ، ونميت كلها على قدم المساواة ، أما اذا اهمل بعضها أو كلها ، فستبقى المشاكل قائمة حتى تجد لها الحل الطبيعي بوسيلة أو باخرى •

المشكل الثقافي في المغرب

المغرب دولة متخلفة ، حصوله على استقلاله ، وانتهاء عهد الاستعمار الفعلي أظهرتنا تضات ، لااقول جديدة ، بل كانت ضرورة النضال ضد المستعمر قد اخفتها ، هذه التناقضات تحولت بسرعة من تناقضات لا تسترعي اهتماما كبيرا من الرأي العام الى مشاكل حادة ذات خطورة كبيرة ، نخلقت أحزابا مختلفة أو جماعات غير منتظمة هذه المشاكل ، رغم ارتباطها المتين ، يمكن تصنيفها ، تسهيلا لطرحها بوضوح ، الى نوعين :

أولا : مشاكل اقتصادية ناتجة عن كوننا مجتمعا متخلفا يطمح الى التقدم والرقي في ظروف تاريخية تستوجب التنمية السريعة حتى يمكن التغلب على العوامل المعاكسة لكل تنمية والتي يحتضنها مجتمعنا .

ثانيا : مشاكل انسانية حضارية تمتد جذورها الى أعماق الماضي ، وهذه في نظري أشد خطورة من النوع الاول ، لانها وثيقة الصلة بكل ما في الانسان من انسانية : بكرامته كانسان ، بأصالته كشخصية ، وبماضيه كبعد من أبعاده وبكبريائه كموجود معنوي يكره الذوبان والاستلاب .

هذا النوع من المشاكل كان دائما مطروحا منذ كان الانسان . ولكن بأشكال مختلفة : أناني ، عائلي ، قبلي ، اقليمي ، ديني ، وطني وثقافي في آخر المطاف . وقد يطرح بشكل آخر في المستقبل .

وبما أن المشكل الثقافي ، في نظري ، هو المطروح بحدة كبيرة في أنحاء كثيرة من العالم الحاضر بما فيها بلادنا . وهو الذي يمكن أن يؤدي بنا ، وفي أقرب الآجال ، الى عواقب وخيمة ، أكثر مما لو كانت المشاكل الاقتصادية هي وحدها المطروحة ، فانني سأحاول أن أبدي فيه وجهة نظري بكل ما يستوجبه علي حبي لوطني من الصراحة والجرأة والموضوعية .

ان خطورة المشكل الثقافي في بلادنا ليست ناتجة عن مجرد وجوده كحقيقة مجتمعية ثابتة اجتماعيا ، بل عن عدم طرحه بجرأة ، وموضوعية وهذا شيء ان لم يكن طبيعيا فهو على الاقل منطقي لان الذين مكنتهم الظروف من أولوية طرحه ، لم تسمح لهم وضعيتهم من معالجته بغير الطريقة التي عالجوه بها الى حد الآن . كما أن ثقافتهم لم ترفعهم الى حد تجاوز المستوى الاناني في التفكير الى المستويات الفكرية الموضوعية . وهذه الاخيرة هي وحدها الخليقة باكتشاف المفاهيم الحقيقية للثقافة المغربية . (12)

المشكل الثقافي مشكل حقيقي

اننا لا نطرح مشكلا مجردا أو خياليا لا علاقة له بالواقع المعاش لمجتمعنا ، بل اننا لا نطرح مشكلا لا يطرحه غيرنا في بلادنا وغير بلادنا لان المشكل الثقافي موجود ولا يمكن لاي كان أن يرفعه أو يخفيه ، وانما الشيء الجديد في موقفنا هو اننا نطرحه بشكل لم يقتنع به غيرنا الى حد الآن . وذلك لاسباب كثيرة ومعقدة ، أهمها ما له من أبعاد تاريخية وسياسية وثقافية أي أنه في جميع الحالات يدخل في التركيب البنيوي لمجتمعنا ويمكنه أن يؤثر فيه تأثيرا كبيرا ان لم نقل جذريا سواء أبقي على ما هو عليه أو حل حلا موضوعيا وعادلا ، وهذا التغيير هو الذي يخيف الكثيرين من المسؤولين ويلتجئون الى الحلول السهلة بالعمل على تغليب جانب على جانب بدعوى الفعالية وربح الوقت وأحيانا بدعوى الوظيفية البسيطة التي لاتكاد تخفي انحيازهم وذاتيتهم المندفعة .

قلنا المسؤولون ، ونعني بذلك ، أجهزة الدولة والاحزاب السياسية

والمنظمات النقابية والثقافية ، وكـذا المثقفين بصفة عامة ، لان المشكل الثقافي في بلادنا مطـروح بالنسبة الى هؤلاء جميعا ، ولكل موقفه وحججه ، غير أنه يلاحظ ان أغلبيتهم يلتقون من حيث الغاية ، ويختلفون الى حد ما في الوسائل والطرق المؤدية الى الهدف المقصـود ، فالمشكل في نظـرهم يتلخص في وجود لغتين تتنافسان السيطرة على البلاد : « لغة رسمية تتوفر على امكانات الدولة الضخمة ... هذه اللغة هي العربية ، ولغة أجنبيـة طارئة جاءت مع الاستعمار وفرضت على المغاربة فـرضا ، وبقيت بـعـد الاستقلال وسيلة ضرورية بالنسبة للبعض الآخـر » . وهذا هو ما يظهر على الاقل على الصعيد السياسـي .

ومع ذلك يمكن أن نلاحظ بعض الفـروق بين مواقف كل من الاطـراف المعنية فاذا كان الكل متفقا على هدف واحد هو التعريب فان وسائلهم هي وحدها التي تختلف ، فالدولة مثلا ترى أن تحقيق الهدف ينبغي أن يكون تدريجيا (13) بينما تريد الاحزاب السياسية والمثقفون المنتمون أن يكـون بسرعة مع توفير كل ما يتطلب ذلك من وسائل وامكانات . أما المثقفون الغير المنتمين فانهم يظهرون أو يعانون ، على الاقل - بعض التردد - مع أنهم لايخفـون ميلهم الى التعريب ايمانا أو تقية .

هذه المواقف كلها لايمكن ايرادها دون وصفها بشيء من الغمـوض وكأن وراء كل رأي من الاراء المذكورة نوايا تقتضي الضرورة اخفاءها ، أو كان أصحابها يوقنون بوجـود حقيقة أخـرى يخفـونها ويخافـون أن يفاجئهم ظهـورها وهم على هذه الحال .

وبالفعل ، فان مقارنة بسيطة بين شعارات المدافعين عن التعـريب من الشخصيات الحزبية والرسمية ... وبين سلوكهم اليومي في بيوتهم ومع أصدقائهم ، تبين بوضوح أنهم لايؤمنون بشعاراتهم بل يستعملونها ليستهلكها الغافلون والمؤلفة قلوبهم من الشـعـب .

وبما أن هذه اللعبة دامت أكثر من عشرين سنة ، فان البعض منا أدرك كل الادراك أن الحيلة ليست بليـدة في حـد ذاتـهـا ، لان الهـدف المقصود من تلك الشعارات ليس احلال العربية محـل الفرنسية بقدر مـا هو رغبة في محو لغة ثالثة وهذا يتحقق يوما بعد يوم ، وأ ن اللغة الاجنبية أو اللغات الاجنبية تقتصر أكثر فأكثر على النخبة المحظوظة . (14)

ويبدو لي أن هذه الحقيقة المخفية ، قصدا ، قد ساهمت الى حد كبير في جعل المشكل الثقافي في بلادنا مشكلا سياسيا مزمنا .

ومعنى كل هذا أن المشكل لم يطـرح على حقيقتـه لذلك يجب مشاركة منا في الحيلولة دون استمـرار الازمة ، أن نطـرحه بشكل آخـر .

اننا متفقون على أن الفـرنسية لغة أجنبية تهـدد كياننا كأمة ذات أصالـة وحضارة متميزتين ، اذا احتفظت بالمكانة التي تحتلها الآن في بلادنا ولكننا لا نؤمن مع ذلك على أن أحسن الوسائل للقضـاء عليهـا هو التعريب السريع المرتجل ، لان هذا لايمكن الا أن تكون له نتائج وخيمة على أجيالنا الصاعدة . أما الذين يرون هذا الحل فلا يستعملونه الا للاستهـلاك السياسي المسمـوم .

أما الشيء الذي لايجمعنا فيه اتفاق الـرأي فهو اننا لا نعتبـر بحال اللغة العربية وحدها اللغة الوطنية الوحيدة في وطننـا ، لان في ذلك اجحافا

كبيرا ، وتضليلا تسافرا ، وبعدا عن الحقيقة الاجتماعية التي نعيشها ، فبجانب العربية ، توجد اللغة الامازيغية التي ماتزال تستعملها نسبة كبيرة من مواطنينا وفي مختلف أنحاء المغرب ، وهذه هي الحقيقة المرة التي يخفيها أو يتجاهلها المسئولون في هذه البلاد • نعم ان لهذه الحقيقة خطورتها وماضيها • أما عن ماضيها فلا نعتبر أن المغاربة مسئولون عنه ، بل الاستعمار هو الذي حملها من خبثه ما جعلنا جميعا نتقزز كلما أثيرت امامنا بشكل أو بآخر ، وأما خطورتها فلا اظن أن تلافيها كامن في اهمالنا لها وتجاهلنا لوجودها • بل اننا بعملنا هذا لا نزيدها الا تأزماً •

الجذور التاريخية للمشكل :

قد لاآتي بجديد في هذا الباب ولكن ضرورة وجهة نظرنا ، تحتم علينا التذكير بالاصول التاريخية للمشكل ، كلنا يعلم ان افريقيا الشمالية كانت دوما ، نظرا لموقعها الجغرافي ـ هدفا للتدخلات الاجنبية التي غالبا ما تقتحم حدودها وتستقر داخلها بشكل من الاشكال ولمدة معينة ، كان هذا يقع كلما ظهرت قوة جديدة على حوض البحر المتوسط ، فكان التدخل الفينيقي ثم الروماني ، فالعربي وأخيرا الفرنسي ـ الاسباني • كل هذه التدخلات تشترك جميعها في كونها أجنبية لغة وحضارة وفي كونها تخطت الينا الحدود بقوة السلاح ، وفي كونها حاولت أن تفرض لغتها وحضارتها على الامازيغيين ، وفي كونها كانت تستغل البلاد والسكان استغلالا ماديا • هذا اذا حاولنا أن ننظر نظرة موضوعية • أما وقد نجحت المحاولة العربية روحيا على الاقل ، فان الكلام عنها بهذه الطريقة ، لابد وأن يثير الكثير منا وخاصة أولئك الذين ينتهزون كل الفرص لاقبار كل محاولة لتوضيح مشاكلنا • أما اذا كنا نحن نجرؤ على ابداء مثل هذه الآراء فلاننا نميز احسن مايكون التمييز بين حقيقتنا الاجتماعية الحاضرة كمغاربة مسلمين وطبيعة الغزو العربي كحركة تاريخية جاءتنا من الخارج حاملة معها بالضرورة أنماط عيش مختلفة •

ونميز كذلك أحسن ما يكون التمييز بين ديننا الحنيف كرسالة الاهية سامية تطفح بمعان انسانية شاملة لاتعرف الحدود كيفما كان نوعها وبين العرب كبشر يتصفون بكل ما يتصف به الجنس البشري من مساوىء ومحاسن فاذا كان الاسلام كدين منزها كل التنزيه فان تنزيه كل الذين عملوا جنودا في نشره هنا وهناك شيء لا يقبله منطق • ان الكثير من الاخطاء يمكن أن ترتكب عن حسن نية ، الا ان كونها كذلك لايمنع في شيء اعتبارها أخطاء • ورغبة أننا لسنا الآن بصدد تعداد الاخطاء المرتكبة في حق سكان شمال افريقيا بعد الفتح الاسلامي مباشرة ، ومنذ ذلك الوقت ، من طرف الولاة الامويين والعباسيين وغيرهم ، فانها بصفة عامة أدت الى انتفاضات قوية ضد الحكام العرب انذاك والذين يعتبرون استمرارا لهم فيما بعد• هذه الانتفاضات كانت ولاشك مصحوبة بشعور لا أقول قومي ولكن بالشخصية المتمايزة بين أولئك الثائرين الامازيغيين المسلمين وأولئك العرب المسلمين • ورغم أن الاحداث التاريخية التي جاءت من بعد أثبتت ضعف ذلك الشعور اذا قورن بقوة مفاهيم الدين الاسلامي التي كانت وقتذاك تفهم في كونيتها فهما ظهر الآن خطؤه •

كان الاسلام واللغة العربية مقترنين ، أي أن الاسلام بدون عربية لايتصور ، هذا التفسير ما يزال سائدا عندنا على الاقل ـ رغم ثبوت خطئه في أراضي اسلامية اخرى • ممعنى ذلك أن الاسلام دين يمحو

بالضـرورة لغات كل البلدان التي يصبح دين سكانهـا ، واذا قلنـا لغة ـ أي لغة ـ لا بـد أن نعني ثقافـة وحضارة معينتين ، لان اللغة وثيقة الصلة بمن تنتمي اليهم ، أي اننا اذا قلنا العـربية ، فاننا نقصـد بالضـرورة العـرب وثقافة وحضارة الـعـرب ، وهاتان تختلفان أيضا بالضرورة عن ثقافة وحضـارة المغاربـة ٠

واذا كان القرآن قد نزل بالعربيـة ، فان اللـه تعالى حين فعـل لم يخلق لغة عربية جديدة لايفهمها العـرب ، بل كان ذلك باللغـة العـربيـة نفسها التي كانت من قبل ، محملة بكل مقومـات المجموعة البشرية التي كانت تتكلمهـا ٠

ورغم التغييـر الكبيـر الذي أدخلـه الاسلام على حياة الـعـرب فان الاستمرار الحضاري ، في بعض جوانبه على الاقـل ـ شيء لايمكن نفيه ٠ واللغة عامل قومي في ذلك الاستمرار فالادب الجاهلي الذي كان شفويا قبـل الاسلام ، جمع في عهد الاسلام ، وقـواعـد اللغـة العـربية التي لم تكن مضبوطة قبل الاسلام درست وضبطت بعد الاسلام وتقاليـد وعادات العرب الجاهلين ، اهتم بها المسلمون أيما اهتمام في أعز عصور الدولة الاسلامية ، ثم الا يقضي تلاميذنا اليوم وقتا كبيرا في حفظ وفهم المعلقات وغيرها من الادب الجاهلـي ٠٠٠٠ ؟

فلو كان الاسلام يعني بالكونية محو كل مقومات الشعوب التي تؤمن به ، لطبق ذلك أولا وقبل كل شيء على العـرب أنفسهم ، ولنـزل القرآن بلغة جديدة ، يعلمها الله لنبيه ، ويضطر كل المسلمين الى تـرك لغاتهم ، التـي أراد الله لها أن تكون متنوعـة ومختلفة ، وتعلـم اللغة الجـديـدة ! اللهـم الا اذا اختار الله فعـلا أمة العرب وجعلها فوق جميع الامم الاخرى التي خلقهـا ٠٠٠٠ !

ومعلوم أن المقياس الوحيد عند الله تعالى هو التقـوى ٠ وباختصار فان الاسلام مبـدأ القومية لا يكونان أي تناقض ، غير أن التناقض يوجـد بين قومبتين أو قـوميات ٠

واذا كنا لاتناقش الجانب الديني ، لانه في نظرنا لايطـرح مشكـلا اجتماعيا ، لاننا ، والله الحمد ، مسلمـون فان المشكل الثقافـي ما يزال مطـروحا ، لان المغاربـة لم يتعـربوا جميعـا ٠

ع٠ أوزوليـط

هذا المقال، لم يُكتب له أن يرى النور، لأن المجلة التي نُشر بها، " أمازيغ" سُحبت و مُنعت سنة 1981. أما صاحب المقال فقد أُحيل على القضاء هو وثلة آخرون؛ وحكمت عليه المحكمة بالسجن؛ أمضى منها سنة كاملة بتهمة المس بأمن الدولة.

هـــــو امــش

1) لقد كتب هذا المقال منذ ثماني سنوات، وهذا هو سبب وجود بعض الاشارات الى ما جد في الموضوع خلال السنوات الاخيرة ، وبما أن هذا الجديد لم يحدث انقلابا في معطيات المسالة الثقافية وبما أن الافكار الواردة في المقال لاتهم الا الجوانب العامة للموضوع ، فاننا سمحنا لانفسنا بنشره كما هو ، مع اضافة بعض الهوامش التي نرى أنها ضرورية لاتمام الفائدة .

2) قلت لم يطرح بجدية ، لان عنصرا هاما من عناصره الاساسية ، لم يدخله في الاعتبار كل اللذين يتوفرون على الوسائل المعنوية والمادية لطرحه . هذا العنصر هو عنصر اللغة والثقافة الامازيغيتين .

3) وفي هذا الصدد يقول سيلفوبروكان « ان اهمية الامة الاثنية كانت مهملة الى حد كبير على المستويين النظري والعلمي في الادب الماركسي » أنظر أيضا ما كتبه (موريس كولدينك) عن المشكل في ايرلندا .

وأكبر دليل على صحة ما قلت هو اهتمام لينين بموضوع القوميات الثقافية في روسيا قبل ثورة 1917 ، بل انه اعترف بوجودها واحترامها والعزم على تنميتها قبل نجاح الحركة البلشفية في التاريخ المذكور .

4) انظر (برونيسلا ومالينوفسكي) نظرية علمية على الثقافة ص. 35

5) انظر (أ. مارتينيه) عناصر اللسانيات العامة ص. 5

6) كثير من اللغات العريقة تجاوزتها لغات حديثة نسبيا تجاوزا كبيرا في ميادين شتى : اللغات الشرقية واللغات الغربية مثلا ، ومعلوم أن هذا التفاوت لايمكن ارجاعه الى عجز ذاتي بالنسبة للاوائل أو الى ميزة كمال ذاتية بالنسبة للاواخر بل لاسباب أخرى كثيرة .

7) انظر (برونيسلا ومالينوفسكي) نفس المرجع أعلاه نفس الصفحة .

8) ان ما كتب حول المشاكل الثقافية في العالم الغربي كثير جدا ، وما يكتب عنها ليس من السهل تتبعه لانها مشاكل الساعة بكل مظاهرها العنيفة والهادئة .

9) يبدو أن الحكومة الاشتراكية الفرنسية واعية الآن بطبيعة المشكل الثقافي واللغوي داخل فرنسا وعازمة على حله حلا مناسبا وهذا ما قاله وزير الداخلية (كاستون ديفير) في استجواب له أجرى بتاريخ 10 يونيه 1981. ومما قال فيه (ان تدريس اللغات المحلية سيخلق في عين المكان نشاطا فكريا كبيرا ، وحياة اقليمية أكثر نشاطا وحياة وطنية متينة)

انظر ماكتبه (فرانسوا ميتران) في الموضوع في كتابه (هنا والآن) الصادر في الخريف الماضي .

10) خصوصا في عالم اليوم الذي أصبح فيه هذا التقدم مرتبطا ارتباطا وثيقا بمراكز معينة من العالم . وأن الاتصال بها لايتم الا داخل انظمة ثقافية وحضارية محددة ، تفرضها هذه المراكز على المواقع القوية . ان التقنية التي تحتاجها الدول النامية ، والتي تصدرها الدول الصناعية ، ليست بكماء ولو ترجم افكار ومفاهيم لايمكن تجريدها منها بمجرد تغيير اسمها أو اعادة تركيبها .

11) (انني أفضل التعدد الذي يقبل الهوية الخاصة لكل شعب) امادومختارمبو 1980 .

ويرجع هذا على الخصوص في نظرنا ، اذا أقمنا مقارنة بين السهولة النسبية التي طرح وعولج بها المشكل الثقافي واللغـوي الى افريقيا اختلاف طبيعته في كلتا الجهتين • فاللغـات التي تكتم انفاس اللغات الافريقيـة في القارة السـوداء هي الفرنسية والانجليـزية والبرتغالية • وهي لغات المستعمـر الحديث ، في حين أن الامر عندنا يتجاوز هذا المستوى من حيث التعقيد لان لدينا لغـة وطنية قوية ماديا ومعنويا ولغة وطنية أخـرى لاتقل أهمية عن الاولى من حيث عدد متكلميها على الاقل ولكنها مهملة عن قصد وذلك لاسباب تاريخية وسياسية •

12) لابد أن نشير هنا الى أن المـواقف تجـاه اللـغـة والثقافـة الامازيغيتين بدأت في السنوات القليلة الماضية تتغير لصالحهما وأريـد أن أنكر هنا على الخصوص ما قاله صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

نشر هذا المقال بمجلة "أمازيغ" عدد 1 السنة الأولى 1981

التراث ومشروع المستقبل

صدقي علي ءازايكو

على صدقي أزيكو أستاذ مساعد في كلية الاداب بالرباط يهتم بالتاريخ الاجتماعي للمغرب، يوجد حاليا رهن الاعتقال بعد أن حكمت عليه المحكمة الابتدائية بالرباط بالسجن النافدة لمدة سنة، التهمة مقال كتبه في مجلة «أمزيغ» حول الثقافة الامزيغية إعتبرت المحكمة بعض فقراته خرقا للدستور، وقد . . سبق للبلاغ المغربي أن أعلنت موقفها الواضح من قضية إعتقال على صدقي وطالبت بمراجعة الحكم الصادر في حقه، لانه في نظرنا إعتمد على تفسيرات خاطئة للمقال من جهة، وأيضا لانظروف إعتقال على صدقي إرتبطت بقضية إعتقال مجموعة مجلة أمزيغ التي قلنا عنها في حينها أنها ليست سوى عملية تصفية حسابات بين أطراف حكومية دهب ضحيتها كاتب المقال، وحول موضوع التراث كتب الينا صدقي مقالا ننشره كاملا.

يبدو أن موضوع التراث يطرح نفسه بالحاح في الفترات الانتقالية في حياة الشعوب، وهذا شيء طبيعي لان أي تغيير ينسج بالضرورة علاقات جديدة ، تدخل في نقاش قد ينحول الى صراع مع العلاقات السائدة. ولاعتقد ان هناك شعوبا تم فيها التغيير دون أن تمر بهذه المرحلة.

واذا كان موضوع التراث قد فرض نفسه في بلادنا . وعلى جميع المستويات. فهذا دليل على اننا نجتاز مرحلة من مراحلنا الانتقالية، ودليل كذلك على أن تراثنا لم يستوعب بعد في شموليته. ولم يتفق بعد على طبيعة العلاقات التي ينبغي ان تكون بينه وبين المرحلة المفبلة المغايرة. فالاهتمام به اذن ليس مجرد «موضة». كما انه ليس مسألة مختلقة، وإما تجاوزه فرهين بتجاوز المرحلة الانتقالية التي نحن الان في خضمها.

هناك من يعتقد أن التراث يعوق تقدمنا ، ويجعلنا سجناء الماضي، إنني أعتقد أن هذا الراي فاسد اساسا. وذلك لسببين: أولهما هو ان التغيير الذي يطمح اليه لايمكن أن يكون في مجال حياة الشعوب الاتحولا. وفي التحول درجات، منه البعيد المدى ، وهذا هو ما يسمى عادة بالتغيير، وقد نصاف اليه في غالب الاحيان، صفة « الجدرى» رغم انه ليس كدلك، وثانيهما هو ان عدم فهمهم للتراث، وبالتالي. نتيجة لدلك، عدم معرفة كيفية استغلاله واعتماده في عملية التحول، هو الذي جعلهم يعتقدون ان التراث حجر عثرة يحول دون اي ارتقاء.

هذا الاعتقاد الخاطئ هو في نظري . نتيجة لانعدام تعريف شامل دقيق للغزالتراث. والذين انتبهوا الى ضرورة تحديد مدلوله، أعطوه مدلولا غامضا عاما، والغريب هو انهم لا يلتزمون به حين يحللون تفاصيل مكوناته جميعها، فحين يقال مثلا : «تراث كل أمة هو ما تبقى من تاريخها، هو محصلة تجاربها المادية والروحية» ثم يقال أيضا : «التراث في الحقيقة هو أنواع فهم المسلمين للقران، لانه بني أساسا على فهم المسلمين للقرآن»، يلاحظ بسهولة الحذف المقصود لمكونات تراثية أخرى تعاملت مع التراث الاسلامي حين وقع الاتصال، ولم تنمحي ماديا.

ليس معنى هذا أنني أعتقد ان تعريف التراث ينبغي ان يكون واحدا يتفق عليه جميع الناس. لان موضوع التراث مرتبط تمام الارتباط بالسياسة. ولان المتحدثين عنه غالبا مايكونون مرتبطين بتيارات سياسية مختلفة او متناقضة.كما أنني اعتقد ان التعامل مع التراث ـ على عكس ما هو شائع ـ لايمكن أن يكون واحدا، اذا نظر اليه نظرة موضوعية خالية من الخلفيات المستقبلية الذاتية أو الايديولوجية. فالتعامل مع التراث ما كان ولن يكون موحدا في جميع الظروف لان التعامل معه جرد وتقويم له، لاتقديسه على علاته. والتقويم انتقاء واختيار ثم اعتماد واستعمال.

قد يكون سبب هذا التوجه المستقبلي «المقدس»، المرتكز على احدى معطيات تراثنا فقط، والذي لايكون في هذه الحالة الا طيفا للتراث الحقيقي الراسب المرفوض... قد يكون سبب ذلك كامنا في طبيعة الفترة التي نجتازها، بكل ما يميزها من اضطراب وبلبلة ناتجين عن اللقاء الحضاري بالاخر، والرغبة المندفعة في اللحاق به بل ومواجهته لان هذا اللقاء مطبوع بطابع العنف بجميع انواعه.

وبما ان هذا الاخر منفوق، فلا بد أن يعيدنا لأنفسنا لنستفهمها، ونرتب اشياءنا كاملة ـ لابعضها فقط ـ حتى يكون انطلاقنا منتميا، وانتماؤنا كاملا، لاننا ننتمي فعلا، لامجرد انطلاق ركضي يفقدنا جزءا من الاساس . فنبقى منقطعين عند الوصول، في حالة ما اذا تم الالتحاق.

تبقى مسالة الانتماء هذه، وهي في نظري حجر الزاوية في قضية التراث هذه . فإذا كان بعض الناس يعتقد انها بديهية لاتحتاج الى مناقشة توضيحية، فانني اعتقد انها هي أول ما ينبغي ان يطرح للمناقشة الموضوعية. فالاجابة عن الأسئلة المحرجة ، بالنسبة الى البعض ـ مثل هذه: من نكون؟ ما هي المعطيات التاريخية التي تميزنا كشعب؟ ما هي المكونات الحاضرة التي تربطنا بماضينا؟ ماقيمة ما يربطنا بما ضينا في إطار مشروعنا لبناء حاضرنا ومستقبلنا؟ ما هو المجال الجغرافي والحضاري الاقرب الينا ؟ كيف ينبغي التعامل معه دون أن يلتهمنا...؟ اقول فالاجابة عن هذه الاسئلة واخرى تكملها، فسيكون ذلك لامحالة بداية سليمة لتحديد هذا الانتماء... واذ ذاك فقط يمكن ان نزعم أننا شرعنا في فهم التراث، ونطمح الى استعماله محركا دافعا الى الامام . وإلا فسيبقى فعله عكسيا في الذين ينتمون اليه انتماء تاريخيا. ولم يفصلوا عنه بعملية التثقيف والمثاقفة والاستلاب.

يبدو أن الرأي السائد هو ان تراثنا استمد ويستمد من النصوص المكتوبة فقط، لذلك نلاحظ أن كثيرا من المهتمين بموضوع التراث، كثيرا ما يرجعون الى هذه المصادر لفهم وشرح مسالة التراث كإشكالية الحاضر والمستقبل. وينسون أن اهمية النصوص التراثية ـ في هذه الحالة ـ تكمن أولا وقبل كل شيء في مدى تأثيرها على طبائع شعبنا. وسلوكه في الحياة. وتعامله معها. وينسون كذلك انهم ليسوا مطالبين بالتعامل المباشر مع النصوص المذكورة في الاطار الذي يهمنا الان. لان الاجيال السالفة كفتهم هده المهمة عبر قرون طويلة.

ان التراث الذي يهمنا سبر اعماقه الان هو ما تمثله شعبنا في تعامله الواعي ولا واعي مع ماضيه، وحوله الى سلوك وانماط في التفكير تتجاوز مضامينه الظرفية المتوالية عبر التاريخ. باخضاعه لضرورات حياته الحاضرة. هذا التمثل ، الذي هو في حد ذاته فهم للتراث وتصرف فيه، هو الذي يزيل عنه صفة الجمود، ويعطيه حيوية الحياة المتجددة، ومهمة المهتمين بالتراث تصبح اذن غير التي يخوضون فيها الى حد الان ، أي محاولة استنطاق النصوص المختارة . واستجدائها للاجابة عن اسئلتهم المجردة، بل تكمن في تامل مجتمعهم لاستخراج الثوابت التراثية فيه، وترتيبها ثم اعتماد ما هو إيجابي فيها، وخليق بتحقيق مشروع جديد للمستقبل .واذا كنا مقتنعين بان هذه هي الطريقة الفعالة الوحيدة للتعرف على التراث واستعماله. فانها لاتقبل التصرف في المعطيات التي يفرضها الواقع المعاش. سواء كان هذا التصرف انتقاء او تهميشا. بعبارة اخرى لايمكن أن نخضع المعطيات الاساسية للتراث لعملية فكرية فوقية مسبقة. يقصد بها محو بعض هذه المعطيات والابقاء على بعضها الاخر. ارضاء او تحقيقا لاختيارات نظرية، املتها معطيات أخرى تكون ذاتية في غالب الاحيان. اريد ان اقول ان التصرف والانتقاء يكونان انطلاقا من المعطيات الموضوعية بعد اثباتها، لاقبل ذلك، ولابعد اثبات بعضها فقط، وان المجهود ينصب في التحليل الهادف للمعطيات كلها. ليكون الاستمرار بين الاصل والفرع ممكنا، وهذا الاستمرار هو الذي يضمن اصالة الاختيارات، المقبلة وبالتالي يحافظ على عبقرية الأمة التي شحذتها قرون من التجارب المتراكمة، وكانت دوما تمكنها من معالجة مشاكلها الخاصة بذكائها الخاص.

ان تراثنا الحالي هو مزيج تاريخي حي لمعطيات تراثية امازيغية واسلامية ـ عربية. وعدم اعتبار واحد من هذه الاصول ـ على المستوى النظري والعملي على السواء، لايمكن أن يودي الى فهم جيد وسليم لهذا التراث وكل فهم غير سليم في هذا المجال لايمكن ان يوظف التراث توظيفا فعالا في تحقيق مشروع المستقبل بل سيؤدي الى العجز الذي لن يتجاوز إلا بفعل العمل التاريخي البطيئ . او الى فهم ما نجح التاريخ في جمعه ومزجه.

فكل انتقاء تعسفي في مجال التراث تمليه الاهتمامات الفكرية المجردة فقط، لايمكن أن يكون الا مجرد بناء نظري جذاب،يموت بموت «موضة»النظرية البراقة. لابد ادن من الرجوع الى الواقع . ومنه وحده يستلهم. البناء الفكري لكل نظرية حول التراث، وتستخرج البنى الثابتة لتنشيط ما تحمله من بذور التحول الأصيل.

صدقي علي ءازايكو

REFLEXIONS SUR LA LANGUE ET LA CULTURE BERBERES

Ali Azayko

تأملات حول اللغة والثقافة الأمازيغيتين

****

تمهيد

يكتسي القرنان التاسع عشر والعشرون أهمية قصوى في تاريخ البشرية ، لا في الميادين العلمية والصناعية فحسب . بل في ميدان الوعي التاريخي لدى الشعوب المختلفة . إن نمو الوعي التاريخي عند شعوب العالم المضطهدة، غبّر وجه التاريخ المعاصر في مناطق متعددة من العالم . لأنه أدى الى انهيار الامبراطوريات الإستعمارية ووضع موضع المشك النموذج الحضاري الغربي، بل النماذج بصفة عامة . وأكد مبدأ الخصوصية ، وقانون النسبية في الأنماط الثقافية، وبالتالي صلاحية التكامل الحضاري والثقافي ، وفساد الميول الهيمنية والإدماجية التي تغذيها، منذ زمان بعيد ، بعض الاديولوجيات المدافعة عن فكرة العالمية ، على أساس الإنتماء إليها والخضوع لمبادئها ومراميها والإندماج فيها كلية .

إنها ، في نطري ، أكبر ثورة عرفها العالم المعاصر، هذه التي ستوقف عملية الإبادة اللغوية والثقافية التي تتعرض [لها] عشرات المئات من لغات وثقافات البشرية في أنحاء كثيرة من العالم ، ولانها ستمكن هذه اللغات والثقافات الضعيفة ماديا من البقاء والنمو. وستوقف هذا الزحف الجارف للثقافات والثقافة الغربية بصفة خاصة ، التي تستهدف تحويل كل الشعوب الى مستعمرة ثقافية ولغوية كبيرة ، يسود فيها النمط الغربي بكل عيوبه الأصلية ، مضافة اليه أخرى ناتجة عن المسخ الذي سيصاب به حين يمسخ الشعوب التي التقطته .

وستعيد العالم الى تنوعه الأصلي والأصيل على المستويات الثقافية واللغوية ، الذي يعد الضمان الوحيد لبقاء تعدد المشارب والمصادر الثقافية والحضارية في العالم . وبالتالي بقاء منابع الغنى الثقافي لدى البشرية . لأن هذا التنوع المتكامل هو الذي أنقذ الانسان ، لحد الآن ، من الفناء المحقق ، بما في ذلك التنوع العرقي ، كما تؤكد ذلك البحوث البيولوجية المعاصرة .

إن الذين يتصورون العالم وحدة لغوية وثقافية واحدة ، أو وحدات كبيرة من نفس النوع لا يعدو تصورهم هذا أن يكون الا تصورا استعماريا اجراميا . لان هذا التصور اذا تحقق لايمكن أن يتحقق الا على حساب العديد من اللغات والثقافات الصغيرة المغلوبة .

ليس معنى هذا أن لايكون هناك بين الشعوب المختلفة نوع من التقارب والتعارف والتواصل والوحدة . بل يعني فقط أن ذلك يجب أن يتم لا على أساس الدّمج والإلتهام والمحو، بل على أساس احترام الخصوصيات اللغوية والثقافية لكل الشعوب . وميادين التقارب والتعاون وحتى الوحدة كثيرة بعد ذلك . هذا النوع فقط هو وحده المقبول والمحمود ، وهذا النوع من التصور هو وحده المشروع . اما غيره معدوان واجرام يجب فضحه كيفما كان ما يتستّر به من ديماغوجية ، براقاً يرتدي مُلاءة البراءة .

إن جميع الحركات الاستعمارية المعروفة ، كان من بين اهدافها إلغاء كل المقومات اللغوية والثقافية للشعوب التي تستعمرها ليتسنى لها إبقاء هذه الشعوب تحت هيمنتها واستغلالها واستعبادها بأقل ثمن . لان شعبا متمسكا بمقوماته اللغوية والثقافية لايموت ولايُستعبد الى الأبد . لان تلك المقومات هي التي تشعره بتميزه عن المستعمِر، وهي التي تحميه من الذوبان في غيره من الشعوب ، وهي التي تذكي فيه روح المقاومة ورفض الاستعباد .

إن النوع الوحدوي الوحيد الذي ينبغي أن يقوم بين الشعوب المختلفة هو الوحدة في التنوع ، الوحدة المتكاملة ، الوحدة المتكافئة ، الوحدة التي يحتفظ فيها كل شعب بمميزاته ومكوناته اللغوية والثقافية .

ا – اللغة الأمازيغية .

1) لماذا كلمة الأمازيغية بدل " البربرية " ؟

إن كلمة "بربر" كلمة أجنبية ذات معنى قدحي في جميع اللغات الاوربية على الأقل وفي اللغة العربية بصفة خاصة . ومن أراد أن يتأكد فليرجع لا الى القواميس والمعاجم اللغوية ، بل الى الجرائد والمجلات والمطبوعات العربية المشرقية التي صدرت خصوصا في فترة الغزو الاسرائيلي للبنان ، ليتأكد ان الهجمات الاسرائيلية كثيرا ما كانت توصف ب : الهجوم البربري الوحشي ، او الهجمات البربرية ، او المذابح البربرية ...
إن هذه الصفة يطلقونها على جرائم اسرائيل اظهارا لمدى وحشيتها وهمجيتها... وفي نفس الوقت يسمون بها شعبا بكامله في شمال افريقيا !! كيف يقع التمييز إذن ..؟
إن كلمة "بربر" استعملها الإغريق والرومان – وبقيت محتفظة بنفس المعنى او أقبح ، في أكثر اللغات الاوربية – وكانوا يعنون بها : الأجنبي غير المتحضر، والهمجي ... وقد أطلقوها على شعوب كثيرة ، ومن بينها الشعب الأمازيغي في شمال إفريقيا . هذا الشعب الذى لم يُسمّ نفسه قط بهذا الاسم ، وما ثبت أنه اعترف به في فترة من فترات تاريخه الطويل .
وجاء العرب ، وأخذوا نفس الاسم وأطلقوه بسكان شمال إفريقيا وكرسوه ، وبما أنهم لم يعرفوا أصل الكلمة – في البداية على الأقل – فقد اجتهدوا في اعطائه اصلا خرافيا ، يغلب عليه التلفيق والتكلف ، فقالوا :إن جدهم كان يسمى "بر" فكرروا الكلمة فاصبحت "بربر" ! وللتأكد من الطابع الخرافي لهذا التفسير يراجع تاريخ ابن خلدون وغيره .
غير ان احتفاظ الكلمة بمعناها الأصلي الاغريقي في الاستعمال العربي دليل على ان العرب اصبحوا يعرفون معناها القدحي . فلماذا اذن استعملوها اسما لشعب بكامله ؟ !
ثم جاء الاستعمار الفرنسي وكرس نفس الاسم ، مع تعديل بل تلطيف للكلمة الاصلية (*Barbare*) ، باستعمال كلمة من نفس العائلة ، تختلف عن الاولى من حيث الكتابة ، فسماهم (*Berbère*) ، اشفاقا عليهم من المعنى الغليظ للكلمة الأصلية !!
لكل هذه الأسباب نرى أنه من الواجب رفض هذه الصفة ، وعدم استعمالها اسما لشعب بكامله لأن في استعمالها مسا بكرامته ، واحتقارا لعظمته وتكريسا لنظرة استعمارية عنصرية .
إن لهذا الشعب اسمه الذي يُميزه ، ويعترف به وهو من أحسن الاسماء: ءامازيغ ، ولغته : ءامازيغية . وهذا هو الاسم الذي أورثه اياه التاريخ . فلماذا يصر الناس على تجريده من اسمه الحقيقي ؟ ولماذا يستخف أبناء ءامازيغ بأهمية هذه المسألة ؟ ! إنها ليست قضية بسيطة ، إنها أساسية لا ينبغي التساهل فيها .

2) ماذا نعني باللغة الأمازيغية ؟

اللغة الأمازيغية هي لغة الشعب الأمازيغي بكل لهجاتها . إنها اللغة التي تنتمي اليها اللهجات الثلاثة الكبرى المعروفة في المغرب (على الاقل) ، وهي :الريفية او الزناتية في الشمال والمغرب الشرقي الأمازيغية في الاطلس المتوسط وتافيلالت وقسم كبير من السهول الغربية. والشلحة في مراكش والاطلس والصغير الى الصحراء الجنوبية ...
إن هذه اللهجات تنتمي الى أصل بنيوي ولكسيكي واحد . وهي فوق هذا وذاك متكاملة جدا فيما بينها . والاختلافات الموجودة – وهي طبيعية لانها شفوية غير مكتوبة – لاتعدو أن تكون اختلافات على مستوى النطق او بعض

التعابير الخاصة ، او للاحتفاظ بكلمات في واحدة منها أضاعتها الاخرى أو حلت محلها كلمات دخيلة .
هذا النوع من الصعوبات البسيطة سيتغلب عليه بمجرد جمع اللغة ، واصدار القواميس الاولى التي تندمج فيها اللهجات الثلاثة . لانها ستمكن القارئ من فهم ما يكتب من كتب، بأية لهجة من هذه اللهجات..
وبهذه الطريقة، مضافةً الى تدريس اللغة في المدارس ، ستعود اللغة . الأمازيغية الاصلية الموحدة الى ذاكرة الناس، بالاستعمال اليومي ، لتحل محل اللهجات المذكورة .
إن اللغة الأمازيغية لغة بكل معنى الكلمة . فكل التعاريف العلمية ـ غير الاستعمارية ـ للغة ، تنطبق عليها . وليست لهجة بالمعنى القدحي كما يدعي البعض، ويصر على عدم الاعتراف لها بدرجة اللغة بدعوى انها غير مكتوبة ، وليست لها قواعد ، وغير موحدة ...غير ان قليلا من التأمل والتفكير والاطلاع مع حسن النية،سيظهر أن كل هذه الشعارات واهية بالاضافة الى انها مغرضة . لأن أية لغة يمكننا أن تُكتب بأي حرف . واللغة الأمازيغية كتبت ـ وبحروفها المميزة الخاصة (تيفيناغ)ـ قبل ان تولد الفرنسية والانكليزية مثلا بقرون كثيرة .
ولانه ليست هناك لغة او كلام ليست له قواعد بالمعنى المتعارف عليه.
واللغة الأمازيغية ، كجميع اللغات في العالم تتوفر على جميع ما تتوفر عليه اللغات الاخرى من أسماء وافعال وحروف ومشتقات ... وكل ما ينقصها هو العمل على إبرازها وتصنيفها في كتب خاصة . واللغة الأمازيغية أخيرا لغة موحدة أصلا . ولهجاتها الحالية ـ كما أشرنا إلى ذلك أعلاه ـ نتيجة مباشرة لعدم تدريسها وكتابتها والاهتمام بها بصفة عامة .بل هناك لغات تفرعت عنها لهجات بالرغم من انها لغة الكتابة والتدريس والادارة ، كاللهجات العربية المختلفة مثلا .

3) أصل اللغة الامازيغية

ليس غرضنا هنا هو محاولة توضيح هذه المسألة بطريقة أكاديمية ، لأن ذلك من اختصاص لغويينا ، ولكن المقصودهو دحض بعض الادعاءات المبسطة والسطحية التي تريد ارجاع اللغة الامازيغية ـ مرغمة ـ الى أصول معينة، لأهدافمعروفة . لان هذه الادعاءات ـ مع كامل الأسف ـرغم أنها لاتنبني على أية أسس متينة ، حققت إلى حد كبير هدف أصحابها منها . وفي ذلك إجحاف كبير باللغة الأمازيغية .
ان اللغة الأمازيغة موجودة بشكلها الحالي ، وهذا هو المهم. وشكلها الحالي يُميّزها تمييزا لا يقبل الشك عن غيرها من اللغات. أما عن وجود بعض الكلمات الدخيلة داخل اللغة الأمازيغية فليس معناه أنها لغة مشتقة منها اخرى ، بل دليل فقط على أنها تعاملت مع تلك اللغة وأعطتها كما أخذت منها . وهذا ليس عيبا في ميدان اللغات ، بل علامة من علامات الصحة والحياة . خصوصا وان اغلبية الكلمات الدخيلة، لم تؤخذ كما هي ، بل أخضعتها اللغة الأمازيغية لقوالبها وصيغها واصواتها الخاصة في غالب الأحيان .
إن اللغة الأمازيغية تعاملت مع كل لغات حوض البحر الابيض المتوسط، وأثرت وتأثرت . وهذا شيء طبيعي ، لانها من اقدم لغات العالم القديم ومن أكبرها إنتشارا ، اذا اعتبرنا الرقعة الجغرافية التي يسكنها الشعب الأمازيغي منذ كان ، أي شمال افريقيا كلها ، وجميع ما يسمى اليوم بالصحراء الكبرى .
فليس غريبا إذن أن نجد فيها كلمات من كل هذه اللغات ، وخاصة التي تعاملت معها مباشرة كالفنيقية والاغريقية واللاتينية والعربية وغيرها..
ولكن الغريب المستغرب هو أن لا أحد يريد ان يعترف بان اللغة الأمازيغية هي بدورها أعطت الكثير لتلك اللغات. غير ان الأدهى هو ان كثيرا من الناس يعتمد هذه الظاهرة ـ اي ظاهرة وجود بعض الكلمات الدخيلة في

اللغة الأمازيغية ـ ليثبت، كما قلنا سابقا ، أنها ابنة تلك اللغة ، بل يذهب الى أكثر من ذلك ، ليقول ويؤكد بأن الأمازيغية من أصل فنيقي او اغريقي او لاتيني ...

إن مسألة الاصول العرقية هذه ليست مطروحة هنا ، لا على المستوى البشري ولا على المستوى اللغوي . لأنها متجاوزة في جميع الحالات . إن المسألة التي تعنينا هنا هي أن اللغة الأمازيغية اليوم ، هي لغة متميزة يجب أن نتعامل على هذا الأساس . لأنها لايمكن ان نتعامل إلا كذلك . وهذا التميز معروف لها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة على الأقل. اذا اعتبرنا فقط المكتوبات المزدوجة المرسومة بالأمازيغية والفنيقية المعروفة اليوم .

4) قيمة اللغة الأمازيغية

إن غنى اللغة الأمازيغية شيء لا مراء فيه . وهذه الحقيقة لا يعرفها ، مع كامل الاسف ، غير أبنائها . ولا تتوفر لحد الآن على أية وسيلة للتعريف بها لدى أبناء المغرب الذين لا يعرفونها ، ليتأكدوا مما نقول لهم . اللغة الأمازيغية غنية كلغة أولا . وغنية ايضا بما تحمله وتروجه من ثقافة واسعة عميقة الجذور في تربة الوطن . وما اكثر ما يضيع سنويا من قصائد شعرية رائعة ، وأحداث ثقافية نادرة ، وأقاصيص وأساطير ذات دلالات عميقة. وما أكبر خسائرنا حين نفقد شيخا مسنا او امرأة طاعنة في السن ، لان ذلك يكون ـ كما قال أحد المثقفين الأفارقة ـ " بمثابة خزانة تحترق " بهذا المفهوم الصحيح حقا ، ما أكثر الخزانات التي ضاعت منا لأننا لانكتب ا لأننا لم نعط كنوزنا ما تستحق من اهتمام وعناية . وتركناها تموت دون أن تكون لدينا أية قدرة على تعويضها .لأننا التجأنا الى مصادر أخرى ، ثبت الآن أنها لاشيء ، إذا لم يسبقها التشبع بمصادرنا الأصلية الأصيلة . ومصادرنا لم نتشبع بها لأننا وبكل بساطة ـ وخاصة نحن المثقفين ـ مستلبون الى حد المرض ، عكس ما كان يجب أن يقع : الثقافة وسيلة مثلى للوعي ولتحديد المواقع ، والتحرر والانعتاق وتحقيق الذات. بل أكثر من ذلك، لقد بلغ الاستلاب عندنا حده الأقصى ، ببروز الجيل الاول من مثقفينا قبيل الاستقلال وبعده على الخصوص . وهذا ، في نظري، أكبر دليل على فقدان الشخصية ، وانزلاق الهوية ... وطغيان طابع التظاهر والسطحية ، والانقيادية العمياء للأفكار السائدة ، ولو كانت على حساب أعمق ما فينا ، وأحسن ما ورثنا ، وأنشط ما يغذي عبقريتنا كشعب أصيل. ألم يكن من الأحسن ، بل من المعقول ان ننطلق من أنفسنا نحو الآخرين بدل ما وقع ويقع الآن ، من ان ننطلق من الآخرين في اتجاه الآخرين ؟ انها خدعة وقعنا فيها وآن الأوان ان ننفلت منها ...

ا) قيمتها على المستوى الفردي

لقد أصبح من البديهي ان حظوظ الخلق والإبداع ، تتوفر أكثر لدى الفرد الذي تلقى تعليمه الأساس بلغة أمه. وتزيد أكثر وترتقي نوعيا إذا ساعده الحظ وتعامل مباشرة مع لغات وثقافات أخرى .ان هذه الحقيقة منعدمة تماما في بلادنا . لان لغة المدرسة والإدارة ووسائل الإعلام ، هي غير لغة البيت والشارع والحياة اليومية . فاذا كانت لغة البيت لدى الطفل المغربي هي الدارجة والأمازيغية ، فان لغة المدرسة هي العربية الفصحى أو الفرنسية أو هما معا . فالقطيعة بين المدرسة الوطنية والواقع العائلي واليومي ، قطيعة شبه كاملة بالنسبة الى الاطفال المغاربة المعربين ، وقطيعة كاملة بالنسبة الى الأطفال المغاربة الأمازيغيين . ان هؤلاء الأخيرين على الخصوص يعانون الأمرين بسبب الغياب الكامل للغتهم الأمازيغية في مدارس بلادهم . ووضعيتهم ، على هذا المستوى ، وضعية مزرية جدا ، لا تقارن مع وضعية اخوانهم المعربين . لان هؤلاء الأخيرين يملكون على الأقل لغة المخاطبة اليومية التي يستعملها المعلم والمدير والشارع . في

حين ان الطفل الأمازيغي يأتي الى المدرسة بلغة ترفض إدارتها ورجال التعليم - رسميا - استعمالها . قلت رسميا لأنه حتى في حالة ما إذا كان أحد من ذكر يعرف الأمازيغية ، فإنه يتحاشى استعمالها مع تلاميذه . وذلك لاسباب متعددة من بينها الشعور بالنقص ، أو الخوف من الاتهامات أو لاعتقاده جهلا بأنها لغة لا تستحق الحياة .

وفي هذا الخضم البئيس ينمو الطفل الأمازيغي معقدا ، جامعا لكل مركبات النقص التي لاتفارقه مدى الحياة . بالإضافة إلى ما ينتج عن ذلك من تأخر في الدراسة ، وضعف في المردودية ، وعياء مبكر . فإذا كانوا مضطرين الى تعلم ثلاث لغات - دون لغة الأم - ويستوعبوا مواد كثيرة بواسطة اثنتين في المرحلة الإبتدائية ، وثلاثة في المرحلة الثانوية ، فان المجهود الذي يبذلونه مجهود كثيرا ما يهضم جناحهم ، ويستنزف قواهم في المرحلتين الأولى والثانية . والنادر منهم يصل الى التعليم العالي . وإذا وصل ، ففي حالة يرثى لها في الغالب . وفي الجامعة تقع التصفية ما قبل النهائية . لأن التصفية الأخيرة تقع بعد حصول هذا الطالب المرهق بما ذكر وباشياء اخرى - كالفقر والبعد عن الأسرة وانخفاض المستوى التعليمي ... ، على شهادته الجامعية . هذه التصفية تتجسم في انمحائه النهائي واعتزاله في ركن من أركان الحياة ، ليضمد جراحه ، ويريح أتعابه ويجتر عقده ، في انتظار الجيل الثاني - أي أبنائه الذين سيحاول تخليصهم من تلك اللغة التي ضاعفت مشقته ، لأنها غير معترف بها والكل متفق على إبادتها : اللغة الأمازيغية .

وبذلك فقط يرقى أبناؤه الى مستوى الأطفال المغاربة المعربين ، فتقل متاعبهم وعقدهم . لأنهم تخلصوا من لكنة ابيهم ، وبالتالي من النعت القاهر المذل : شلح . وإن سألتهم قالوا : أبي هو الشلح أما أنا فلا . يالها من معزلة ! ومع ذلك فهذه المعزلة هي التي مر بها المغاربة جميعا ولا يزالون مع كامل الأسف . قلت المغاربة جميعا ، لأنهم كلهم تقريبا أمازيغيون أصلا ، منهم من تعرب وتعصب ضد أهله ، وضد لغة اجداده .

ب) <u>قيمتها على المستوى الوطني</u>

إن أفضل ما تفتخر به الشعوب هو ثقافتها الوطنية ، وتراثها النابع من أعماق تاريخها . وإذا كان غنيا كغنى تراثنا ، فاعتزازها يزداد ويتركز . غير أن هذه القاعدة - الفضيلة - مجهولة لدينا مع عميق الأسى والأسف . وهذه الوضعية الشاذة كثيرا ما تدفع بي إلى صب اللعنات على حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يربطنا بعالم يسلبنا ، ويمسخنا بنزعة كلبية ملحة . ولو لم تكن هناك شعوب أخرى متوسطية ، لها نفس الموقع الجغرافي ، ومع ذلك تمكنت من الحفاظ على خصوصياتها اللغوية والثقافية ، لتماديت في الإعتقاد الخاطئ الذي يراودني كلما تأملت في وضعيتنا الثقافية . أي الاعتقاد الذي يرجع هذه الوضعية المشوهة إلى موقع بلادنا الجغرافي .

إن أسباب ذلك كثيرة ولا شك ، ولكن أهمها - في نظري - يتلخص في انعدام الوعي التاريخي لدى المثقفين المغاربة بصفة خاصة . مما أدى بهم إلى الإنجراف وراء كل نعيق شرقي أو غربي في الوقت الذي يتوفرون في بلادهم على كل أسباب الخلق والابداع والإختراع ... في الميادين الثقافية كلها . ان انجرافهم هذا جعلهم يعمهون في ميادين غيرهم وينطلقون من منطلقات لا تربطهم بها روابط عضوية أو روحية أو ثقافية ، فتأتي أعمالهم بالضرورة هزيلة ركيكة شكلا ومضمونا .

وكنتيجة حتمية لما ذكر ، فإنهم دوما مضطرون الى طلب التحكيم من الاجانب ليزكوا أعمالهم الجوفاء . وبما أن هؤلاء الأجانب يعرفون جيدا أن هذا النوع من التلاميذ لن يتمكنوا في يوم من الأيام من منافستهم منافسة جدية ، فإنهم قليلا ما يترددون في إعطائهم شهاداته ما وراء البحار أو ما وراء القفار .

هذا الوعي التاريخي المنعدم ، طمس شخصية المغربي بصفة عامة والمغربي المثقف بصفة خاصة . وهكذا نجد أن أكثر من نصف الإنتاج المغربي من المستورد غير المغربل : في ميدان الفنون وخاصة الأغنية والافلام والمسلسلات ، في جرائدنا الوطنية ، أقل من الثلث مخصص لمسائلنا الوطنية ... هموم شعرائنا كثيرا ما تنصب على ما وراء الحدود ، أسماء أبنائنا جلها التقط التقاطا من الافلام السينمائية والتلفيزيونية أو من محلات كالموعد وغيرها . أسماء شوارعنا تزخر ببطولات غيرنا ومآثرهم... وكأننا فقراء التاريخ . برامج تعليمنا لا تبرز شخصيتنا الوطنية بما فيه الكفاية ، وخاصة فيما يتعلق بمادة التاريخ الوطني الذي اختزلت منه فترات كبيرة ...

هذه اللائحة يمكن ان تطول ، ولكن المقصود هنا هو الإشارة فقط إلى خطورة ظاهرة السكر العلني هذه، والتي ستؤدي بنا لا محالة إلى التسمم النهائي والعقم المزمن .

ولنعد الآن إلى موضوع القيمة الوطنية للثقافة الأمازيغية . إن ثقافة ما تكون غنية إذا تنوعت مصادرها وتجذرت مصادرها الأساسية في قلب تربة الوطن ، وسعى ابناؤها الى تنميتها وتلقيحها بأحسن ما أنتجته الثقافات الأخرى .

بخصوص الشرط الاول ، لن أبالغ إذا قلت بأن الثقافة المغربية من أغنى الثقافات في حوض البحر الابيض المتوسط . ذلك لأن المغرب هو البلد الوحيد في شمال إفريقيا الذي احتفظ - في ظروف صعبة حقا - بلغته الأمازيغية في حالة أقرب الى الأصول . في حين تعرضت الأمازيغية في مناطق أخرى من شمال إفريقيا لتشويه نسبي لا يستهان به ، باستثناء لغة التارقيين على ما يبدو .

وفي احتفاظه بهذه اللغة ، التي تعتبر من اقدم لغات حوض البحر الابيض المتوسط كما سبق ذكر ذلك ، يكون قد احتفظ في تراثه - بمعناه الواسع - بكثير من جذور ثقافة هذا الحوض التاريخي . في الوقت الذي ضاعت فيه بلدان أخرى لأنها أضاعت لغاتها القديمة واستوطنتها اخرى .

ولأن المغرب كذلك لم يفته ان يستفيد من الثقافة الإسلامية التي تعتبر من حيث قيمتها . الروحية والإنسانية ، تتويجا وتكميلا للثقافة الأمازيغية الأصلية المتقدمة من حيث التنظيمات الاجتماعية والسياسية والتقنيات المختلفة المتعلقة باستغلال الارض والاستفادة منها ...ونرى اليوم انه يتعامل بنفس الاسلوب مع الحضارة العربية السائدة الآن.

ولكن في ظروف . تجعلنا نتخوف من خطر الاندماج الكامل في نظام ثقافي وحضاري قد يمحو كثيرا مما حافظنا عليه منذ قرون كثيرة وطويلة .

إن احتفاظ المغرب بمصدرين من أهم مصادر الثقافة الانسانية القديمة واحتكاكه الفعال بالثقافة العربية السائدة اليوم ، يجعله بالفعل متوفرا على كل الإمكانات ليبني ثقافة أصيلة راقية . شريطة أن يمزج مزجا ذكيا كل هذه المصادر في قوالب ثقافته الخاصة ، ويكون إبداعه انطلاقا منها . وهذا هو الضمان الوحيد والشرط الضروري الذي سيمكن الإنسان المغربي من إنجاز عطاءاته كلها ، والإسهام في إغناء الثقافة الانسانية برمتها .

ت) قيمتها على المستوى الانساني

ان الثقافة الإنسانية ملك لجميع البشر منذ كان الإنسان إلى اليوم . وليس لأية مجموعة بشرية ، كيفما كانت ، أن تدعي أن ثقافتها هي الأصل أو هي الرائدة أو هي الأرقى ... ، كما يحلو لبعض الجهال أن يزعموا . كل ما هنالك هو أن الأدوار تتنقل من مجموعة إلى أخرى ، ومن منطقة إلى أخرى حسب ظروف موضوعية وتاريخية محددة . وهذا الإنتقال ما ثبت أنه كان انتقالا منقطعا ، بل كان دوما متصلا بما سبقه من تجارب ثقافية وحضارية بعيدة كانت أو قريبة .

وبما أن الثقافة الأمازيغية ورثت من كل ثقافات حوض البحر الأبيض المتوسط، وكذا الثقافات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، فإن بإمكانها الإسهام في إثراء الثقافة الإنسانية، إذا عرف أبناؤها أن يحافظوا على كل مصادرها المذكورة، وينسجوا أفكارهم وإبداعاتهم الفنية والأدبية والفكرية بصفة عامة، مما توفره لهم من إمكانات تمتد عروقها بعيدا في تاريخ العالم القديم، وتستنشق فروعها النامية من ثقافة العصر الحالي... إذا فعلوا، فلا شك أنهم سيأتون بجديد. وسيكتسبون الثقة بأنفسهم، وبذلك ستكون شخصيتهم مؤكدة، تفرض نفسها بأصالتها وعمق تجربتها. وإذ ذاك فقط سنتخلص من عقدة البحث عن الحكم المُزكي من الذين نقلدهم في تجاربهم على حساب تجاربنا الخاصة.

إن الثقافة الإنسانية في حاجة إلى جميع المساهمات التي يوفرها التنوع الرائع والطبيعي في مجال الإنسانيات. وحرماننا من مساهمة أية ثقافة مهما كانت صغيرة - بأية طريقة من الطرق، وبأية وسيلة من الوسائل - يعد جريمة في حق الإنسانية كلها. ولهذا السبب تقوم اليونسكو بمجهود كبير لتركيز هذا النوع من الوعي لدى شعوب العالم وتساهم مساهمة كبيرة في عملية إنقاذ وحماية اللغات والثقافات التي ضربت تحت كلكل الثقافات الإستعمارية وذات النزعة التوسعية. غير أن مجهوداتها هذه كثيرا ما تكون عديمة الجدوى لأسباب منها: قلة إمكاناتها المادية والمعنوية، وضعف تأثيرها أمام القوة الهائلة والجارفة لتيار المد الاستعماري اللغوي والثقافي، المعزز بقوة وسرعة التقدم العلمي والصناعي والتكنلوجي والإعلامي. ولكن العامل المساعد الأكثر خطورة هو ضعف الإرادة الوطنية أو انعدامها لدى حكومات الدول المتخلفة بصفة عامة. والذي يؤدي أحيانا إلى العمل على إجهاض كل ما تقوم به اليونيسكو من إنقاذ اللغات والثقافات المحلية. بل إلى قمع الأصوات الوطنية الداعية إلى احترام الحقوق اللغوية والثقافية الوطنية، وتنمية كل اللغات الوطنية - في حالة التعدد - وكل مكونات الثقافة الوطنية على حد سواء، والإقلاع عن تفضيل جانب على جانب وتقوية جزء على حساب الآخر.

إن الإنسان الأمازيغي، رغم الطمس الذي عوملت به عطاءاته، ورغم المجهودات المتوالية والملحة عبر القرون، الرامية إلى محو هويته كإنسان منتج على مستوى العمل الثقافي الانساني، قد ساهم بحظ وافر في إغناء التراث الإنساني. فالحضارة المصرية القديمة التي بلغت مستوى راقيا، يعترف كل العالم اليوم أنها من صميم الحضارة الأمازيغية - المصرية. وقبل هذه وكل التي جاءت من بعدها، من ما بين النهرين إلى اليونان إلى روما...، كانت الحضارة الراقية حضارة جزيرة أطلانتيد، التي لم تكن خرافة من صنع الخيال، بل واقعا تشهد به الدراسات الطبيعية الأخيرة، والبحوث التاريخية المتقدمة. وحضارة أطلانتيد إن لم يكن الشعب الأمازيغي من مؤسسيها فهو واحد من ورثتها على الأقل.

إن كل الدلائل تسير اليوم في اتجاه اثبات وجود حضارة راقية في أطلانتيد التي كانت شمال غرب المغرب الحالي وغرب شبه جزيرة إيبيريا قبل انفصال القارة الأمريكية تماما عن القارة الأورو-إفريقية. ومعنى هذا أن الحضارة القديمة المعروفة في حوض المتوسط وأمريكا، كلها من تأسيس أو من تأثير المهاجرين الأطلانتيديين الذين نجوا من الكارثة الطبيعية التي أغرقت جزيرتهم. وهؤلاء المهاجرون منهم من استقر في افريقيا الشمالية، ومنهم من تجاوزها في اتجاه الشرق. هذه الحقيقة تكذب الرأي السائد بأن كل الهجرات البشرية التي عرفها العالم كانت من الشرق في اتجاه الغرب. مع كل ما يسبق ذلك من خلفيات وما ينتج عنه من عواقب وخيمة بالنسبة إلى الأفراد وإلى الجماعات غير المركزية غير الواعية.

وإذا كان التراث الأمازيغي المكتوب قد أتلفته الايدي الآثمة منذ القديم نظرا لضيق أفق القوى المتوالية عبر التاريخ، والتي تمكنت من

اخضاع واستعمار جزء من شمال افريقيا . ونظرا لانعدام الوقت الكافي لدى الشعب الأمازيغي يُمكنه من مراجعة نفسه وتوطيد ركائز ثقافته. فكان دوما في حالة استنفار دفاعا عن ارضه وحدوده واستقلاله منذ الألف الأولى قبل الميلاد على الأقل .. أقول إذا كان الأمر كذلك ، فإن أبناءه أنتجوا في لغات أخرى من القمم العلمية والأدبية والفلسفية ما لايزال مشهودا الى اليوم. فقد كتبوا بالإغريقية واللاتينية والفنيقية والعربية ما لا يحصى ولو أمكن إنجاز بيبليوغرافيا أمازيغية لتعداد ما ساهم به أبناء أمازيغ في الحضارة الإنسانية لملأت مجلدات عديدة. ولو جمع ما يجود به الفكر الأمازيغي التلقائي كل يوم ، منذ كان إلى اليوم، لكانت الخزانة الأمازيغية من أغنى الخزانات الموجودة .

وإذا كان الشعب الأمازيغي - رغم كثرته وقوته العددية واتساع الرقعة الجغرافية لبلاده لم يُكوّن أمبراطورية ، تبني القلاع والحصون والعواصم ، وتنمي ثقافة معينة، وتكون جيوشا من العبيد والمستعبدين.. لتحمي نفسها من الإنهيار، وتستمر في استغلال الشعوب المغلوبة...فلأنه شعب نمّى تنظيمات اجتماعية واقتصاديةوسياسية ؛ تحول دون قيام أية سلطة مركزية طاغية . فكان نظامه الجماعي الديموقراطي يستهدف توزيع السلطة ، لا على مستوى الأفراد فقط ، بل على مستوى الجماعات على الصعيد الوطني كله. وكانت مراقبة أفراد الجماعة مراقبة مستمرة، يقوم بها أعضاء المجموعة كلهم ، دون أي تمييز بينهم داخل الجماعة .

وهكذا تكلف واحدا من أعضائها بتحمل مسئولية "أمزوار" لمدة سنة تمدد أم لا حسب الظروف .كما أن أعضاء الجماعة هم أنفسهم يمكنه تنحيتهم في حالة ما إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك . غير أن ذلك قليلا ما يقع لأنّ العضوية في الجماعة ليست مجرد مسئولية إدارية تتحكم فيها قوانين مجردة ، بل هي قبل كل شيء، مسئولية أخلاقية ترتبط بالفرد الذي يمارسها ارتباطا ذاتيا وعائليا وارثيا . أي أنه يعتبر نفسه وعائلته والمجموعة التي ينتمون إليها جزءا لايتجزأ من المسئولية المنوطة به. لذلك يحاول بكل ما أمكنه ،أن يكون في مستوى ما يتحمله من مسئولية . ولا يقع الخلل في هذا النظام إلا في فترات الأزمة . وفي هذه الفترات فقط، مع الأسف ، تم وصف هذه الجماعات في بعض الكتب ، وهذا الوصف هو الشائع المتداول .

هناك وسيلة أخرى للمراقبة ، كانت فعالة سواء على المستوى المحلي أو على المستوى الوطني . هذه الوسيلة هي المعروفة بنظام " أَلَّفْ" وتعني بالأمازيغية اللواء أو العلم أو الحزب . ويتلخص هذا النظام في وجود حزبين يحملان اسماء مختلفة حسب المناطق ، ينتمي إليهما كل سكان البلاد من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرقانتماءيكاد يكون متوازنا ، بل إن هذا التوازن هو الأساس في ايجاد الاستقرار بين كل المجموعات . وأي خلل فيه يقتضي حتما رعزعة تعيد إليه التوازن وهكذا .

هذان الحزبان كانا متعارضين تعارضا مؤسسيا ان صح التعبير . أي أن المهمة الأساسية - ولكنها ليست الوحيدة - كانت هي الحيلولة دون تفوق الحزب الآخر . لأن تفوقه سيؤدي بالضرورة إلى إخضاع الحزب المواجه ، وبالتالي إلى تركيز السلطة ، ثم إلى كل ما يتبع ذلك من عواقب وخيمة معروفة.

أما عن التحرك الفعلي لهذين الحزبين ، فالذي نعرفه لحد الآن هو أنه كان تحركا يتم داخل دوائر متصلة فيما بينها على طول وعرض رقعة البلاد. أي أن المنتمين إلى كل منهما يعرفون بعضهم البعض داخل مجالات جغرافية دائرية قد تتسع اتساعا كبيرا ، ولكنها لا تصغر أبدا إلى ما دون الحد الأدنى الذي قد يشمل اربع او خمس مجموعات بشرية او ما يسمى عادة "قبائل".

ذلك لأن القبيلة بمعناها البيولوجي المعروف لدى الرحل، لا تكاد توجد في واقعنا الإجتماعي في الفترات التاريخية المعروفة ؛ وخاصة القريبة منها على الأقل . وأكبر دليل على ذلك - وهناك أدلة أخرى لا مجال لذكرها هنا - هو وجود التنظيمات السياسية المذكورة أعلاه . أي تنظيمات أَلَّفَ (الكلمة ليست من لَفَّ يَلُفُّ كما يزعم البعض) التي كانت تجاوزا راقيا للتنظيمات ذات النزعة القبلية المحدودة، إلى مستوى التنظيمات السياسية الواسعة، التي كانت ستؤدي - لو نجحت اللعبة - إلى نوع من التنظيم السياسي الثنائي فريد من نوعه .

غير أن الموقع الجغرافي لبلادهم، فرض عليهم التعامل مع شعوب أخرى ذات تنظيمات سياسية مخالفة . مع شعوب نجحت فيها المحاولات الإستبدادية، وتكونت فيها دول وأمبراطوريات، تمكنت من إخضاع شعوبها ثم جل الشواطئ المتوسطية بما فيها شمال إفريقيا . ورغم أن التنظيمات الأمازيغية لم تكن مركزية فإنهم، مع ذلك، تمكنوا من مواجهة الغزو الاجنبي بقوة وعنف . ولم تتمكن قط أية قوة متوسطية من السيطرة الكاملة على كل بلادهم، وكانت لا تتجاوز بعض المراكز على الشريط الساحلي الشمالي او الغربي، والأراضي القريبة منها . إلا أن هذه المداهمة المستمرة أدت إلى خلق أزمة شبه دائمة . وبالتالي إلى اعطاء السلطات إلى أشخاص استبدوا بها مددا طويلة . الشيء الذى مكنهم من تقوية مراكزهم السلطوية بجميع الوسائل . وبذلك بدأ النظام الجماعي ينحرف، فظهرت الإمارات والدويلات والدول والأمبراطوريات الأمازيغية . وبظهور هذا النمط الجديد في الحكم، صحبته جميع مظاهره الأخرى من حروب دائمة ناتجة عن الرغبة العمياء في إخضاع كل المجموعات الاخرى، وعرض/الواحد لتكوين دولة قوية تحاول إخضاع الجيران وهكذا . وظهرت معه كذلك أنشطة أخرى في ميادين مختلفة كالعمران والعمل الثقافي ... غير أن هذا الأخير - نظرا لطبيعة النظام الذي خلقه - لم يكن في الغالب أصيلا بل مقلدا حتى على المستوى اللغوي، أو انه كان يبدو كذلك على الأقل . فالتقليد الذي تم على مستوى نظام الحكم، أدى إلى التقليد على جميع المستويات بما في ذلك المستوى اللغوي . ولعل سبب ذلك هو عدم وجود تقاليد قديمة مرتبطة بهذا النوع من النظام في الحكم. تلك كانت النتيجة الأولى لهذا الإتصال الواقع بين الأمازيغيين بأنظمتهم الجماعية والقوى الخارجية المداهمة بأنظمتها "الدولتية" (étatique) المركزية. أما النتيجة الثانية، فتتلخص في إفساد النظام الجماعي دون القضاء عليه نهائيا . وبذلك تعايش النظامان في صراع دائم في المجتمع المغربي الى الأمس القريب . ولكن أهم نتيجة سلبية في نظري، هي ما أصاب اللغة الأمازيغية من إهمال قاتل، بسبب عدم استعمالها في أجهزة الدولة الوطنية العاكمية ومؤسساتها التعليمية وغيرها، رغم أنها كانت لغة الشعب بأكمله ولغة/ إنها الضريبة الباهضة التي أداها الشعب الأمازيغي مقابل نضاله الطويل وحرصه الدائم على إحباط كل محاولة تهدف الى قيام نظام حكم غير جماعي .

هكذا كان الإستلاب على مستوى أنظمة الحكم، إستلابا كذلك على المستوى اللغوي، وإلى حد ما الثقافي . وكأن تناقضا بنيويا بين اللغة والثقافة الأمازيغيتين وهذه الأنظمة المذكورة، حال دون اخضاعها للمؤسسة اللغوية الأمازيغية . فوقع هذا التراكب غير المتطابق عبر العصور بين نظام قاعدي يستمد روحه وممارسته من أعماق المجتمع الأمازيغي، ونظام علوي لا صلة له بالجذور الثقافية للشعب، ولكنه يرتكز على إيديولوجية تحميها القوة الخارجية وحلفاؤها في الداخل . هذا هو الذي وقع بصفة خاصة في الفترة الرومانية .

إن الكتابة كأداة إيديولوجية، كوسيلة لتركيز وتوطيد ركائز الأنظمة القائمة : - تبرر مشروعيتها، وتوجه التاريخ لصالحها، وتمدح حاضرها... - شيء لا مراء فيه حينما يتعلق الأمر بالأنظمة المركزية التي هي بطبيعتها أنظمة مفروضة في غالب الأحيان . أما في حالة النظام الجماعي، فليس لها نفس الدور . لأن لا أحد يحتاج إلى أن

يجعلها تقوم به . إنها تتقمص الجماعة كلها ، وتعبر عن رأيها ، وتحمل أخلاقياتها وقيمها ... وهذا يمكن أن تقوم به دون أن تكتب ما دامت الجماعة والجماعات المحيطة بها محافظة على التوازن الداخلي بين مختلف العائلات المكونة لها ، وبينها وبين جيرانها . وعدم وجود الكتابة في المجتمعات الجماعية يساعدها إلى حد كبير على إخضاع التاريخ لتصورها الآني والذي تفرضه المصلحة الجماعية الداخلية والخارجية . وبالتالي يسمح لها ذلك بالتحايل الإيجابي لإعادة بناء العلاقات في اتجاه التوازن الذي يضمن بقاءها كأنظمة جماعية . في حين يبدو أن مثل ذلك غير ممكن حين تكون الكتابة سائدة . لأنه في هذه الحالة تكون الكتابة القوية الموجهة حكرا على الأقوياء ماديا وسياسيا .

إن موضوع الكتابة كوسيلة للتدوين وعلاقتها بالسياسة والإيديولوجية لموضوع مثير حقا ، غير أن أهميته القصوى تكمن في التعرف على ارتباط الكتابة بنوع من التاريخ هو السائد اليوم في كل المجتمعات الارضية ومحاولة التعرف على مدى تنافرها مع المفاهيم الجماعية في الحكم بصفة عامة ، إن كان هناك تنافر . وهذا موضوع قد يتطرق إليه غيرنا ممن يتوفر على إمكانيات كافية لإنجاز هذا العمل الهائل .

5) الثقافة الأمازيغية

إن الثقافة المغربية ثقافة أمازيغية بلا منازع، سواء منها النوع الصامت أو المتحرك أو المعبر عنه بغير اللغة الأمازيغية أو الذي احتفظ بها كوسيلة للتعبير . لأنه لا يكفي تغيير لغة قوام لتغيير ثقافتهم بمعناها الواسع، عكس ما هو شائع ، وما يراد إشاعته . ذلك لأن الثقافة تكون متجذرة إلى حد لا يسمح باقتلاع جذورها ، بمجرد تعلم لغة تحل - كلا أو بعضا - محل اللغة الأصلية . بل الذي يقع فعلا - وهذا يمكن اثباته عمليا على مستوى الواقع - هو أن اللغة الجديدة هي التي تتعرض لعملية إخضاع لمعاييس وقيم ومعطيات الثقافة المتأصلة . ولا يقع هذا على مستوى السلوك العام في التفكير داخل اللغة الجديدة فحسب ، بل يحدث كذلك على مستوى البنية والتركيب والمفردات ... بالنسبة الى اللغة المستعملة في الوضعية الجديدة . ويتم بحلاء كبير إذا كان التحول بطيئا وتلقائيا ، وبدون أي تدخل ما من مؤسسات متخصصة كالمدرسة والدولة ... وهذا النوع من التحول بالذات هو الذي وقع في بلادنا ، حينما تحول جزء من الشعب المغربي من استعمال لغته الأم الى استعمال اللغة العامية المعربة . قلت عنها معربة لانها بالفعل أمازيغية من حيث أسسها البنيوية والتركيبية واحيانا الليكسيكية ، ولكن المفردات عربية تخضع كلية للقواعد الأمازيغية ، وليست لها أية صلة بالاعراب العربي. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبارها بنت الأمازيغية، كالمعاربة المعربين بالنسبة الى أجدادهم وآبائهم الامازيغيين . ولغة أصلها من النوع الذي ذكرناه ، لايمكن أن تحمل إلا ثقافة لغتها الأم ، وهي هنا اللغة الأمازيغية .

اعتمادا على هذه الحقيقة يمكننا إذن أن نقول : إن الثقافة المغربية الحالية ثقافة أمازيغية يعبر عنها لغويا بوسيلتين هما الأمازيغية والدارجة المغربية . وهذه الأخيرة ليست إلا ترجمة حرفية للأولى لأسباب ذكرنا بعضها ، وأخرى بشرية وتاريخية ، بالإضافة إلى الواقع الشفوي للغتين معا .

فإذا كانت هناك ازدواجية حقيقية على المستوى اللغوي ، فليست هناك أية ازدواجية ثقافية . لأن الشعب المغربي شعب واحد منذ كان ولم تقتحمه أية مجموعة بشرية اخرى غريبة عنه ، ذات اهمية عددية قد تؤثر في تكوينه البشري أو نسقه الثقافي والحضاري . والذي وقع هو أن المجموعات التي ساكنته تاريخيا كانت لاتعتبر من حيث أهميتها الكمية بالمقارنة مع

الشعب الأمازيغي المنتشر في شمال افريقيا كله من مصر الى المحيط، وكل المناطق الصحراوية الواقعة جنوبه . .

إن الثقافة المغربية ثقافة أمازيغية بلا منازع . وهذا لايعني أنها منعزلة أو منفصلة عن غيرها من ثقافات حوض البحر الابيض المتوسط وافريقيا . بل يعني فقط أنها تمكنت من هضم التأثيرات الخارجية المختلفة، وأخضعتها لأنماطها الثقافية المتميزة . أي أنها لم تفقد - بفعل اتصالها القديم والحديث بالعالم المجاور - شخصيتها وخصوصياتها رغم الصعوبات والضغوط الكبيرة المتنوعة . وفي هذا التمثل الذكي لمختلف ما تعرفت عليه من ثقافات وحضارات ، تكمن وتبرز عبقرية هذا الشعب وأصالة ثقافته . ولولا ذلك لماتت ميتته التارخية منذ زمان .

إن ذلك يعني أن ثقافتنا واحدة موحدة. وليست بحال تراكبا هجينا لثقافات متعددة مختلفة . وهذا ما تؤكده مظاهرها الصامتة من عمارة ونسيج وحلي وتقنيات زراعة وصناعات منزلية ومهنية وتنظيمات مجتمعية بجانبيها السياسي والقانوني على الخصوص ...

ومظاهرها الأخرى في مجالي الفنون - كالرقص والموسيقى والزخرفة والنقش... - والآداب كالشعر والحكاية والأسطورة ...

هذه المظاهر كلها ، وغيرها مما لم نذكره هنا ، لو أن مثقفينا وفنانينا وباحثينا ... تخلصوا من استلابهم الذي نمي فيهم منذ الصغر ، واستيقظوا من الغفلة التي خلقها فيهم التوجيه الخاطئ والمقصود، في ميادين البحث المختلفة في مجالات حياتنا المختلفة التاريخية والحاضرة والمستقبلة ، أقول : لو انتبهوا إلى أن الفرضية الكبرى التي تسوق اجتهاداتهم ، فرضية مغلوطة منذ البداية ، لوجدوا أن الحقيقة التي يبحثون عنها توجد في مكان آخر . أي في العامل المشترك الأمازيغي لا في غيره. ولقالوا ذلك بصراحة وموضوعية علمية لا يتطرق اليها الشك. لا كما يفعلون الآن حين يتحدثون عن كل شيء في أبحاثهم   ودراساتهم ، إلا عن الأمازيغ ودوره وأثره وحضوره... وهذا هو منتهى التزوير والزيف ... بل أكثر من ذلك ، إنهم لا يتورعون عن أن ينسبوا أعمال الأمازيغ إلى غيرهم من الشعوب فالحروب البونيقية - الرومانية مثلا ، نسبت الى الفنيقيين رغم أنها كانت حربا أمازيغية - رومانية . لأن ما كان يسمى بالقرطاجنيين لم يكونوا في الحقيقة إلا أمازيغيين ذابت فيهم   أقلية من التجار الفنيقيين. اللهم إلا إذا فرضنا أن فينيقيا انتقلت برمتها إلى قرطاجنة ! وهذا لم يثبت تاريخيا . فالحضارة القرطجنية إذن ، حضارة أمازيغية ممتزجة بغيرها مما كان معروفا في حوض البحر المتوسط ، والذي تمكن الفينيقيون من التعرف عليه ؛ نظرا لتنقلاتهم التجارية المستمرة .

أما ما يسمى بالحضارة الرومانية في بلاد الأمازيغ ، فمن الضروري أن يناقش كذلك ، ومن الضروري أن تقوم أبحاث أركيولوجية لاتوجهها فرضية البحث عن الآثار الرومانية فقط ، بل اخرى مغايرة لها تهدف إلى تحديد الأساس الأمازيغي لهذه المظاهر . ولا أعتقد انه غير موجود كما هو سائد الآن . إن المدن المغربية التي بنيت في الفترة الاستعمارية الرومانية تحمل كلها تقريبا اسماء أمازيغية : تاموسيدا ، تامودا ، تانجيس ،ليكسوس (ءادو سوس بمعنى السعد) ، أواليلي ، سالا (أو شالا) ... فلو كانت رومانية محضة ، ولو بنيت من لا شيء ، لكانت أسماؤها رومانية لا أمازيغية يبقى إذن أن نفترض أن هذه المدن كانت موجودة قبل مجيء الاستعمار الروماني وبمجيئه اتسعت وادخلت عليها تعديلات وبنايات أعطتها مظهرا رومانيا . وحتى هذا المظهر يمكن أن يكون لها قبل مجيء هؤلاء . لأن الأمازيغيين كانوا يعرفون الفن المعماري الاغريقي قبل ذلك بكثير .

أما دور الأمازيغيين في أوروبا بعد اعتناقهم الاسلام ، فلا أحد يعترف به . ومع ذلك فالحقيقة التاريخية لابد أن تعرف طريقها الى الظهور في يوم من الأيام . وفي انتظار ذلك نقول فقط : ان فتح الاندلس لم يتم إلا على يد

الأمازيغيين المسلمين وأن حركتهم هذه وصلت إلى ما وراء جبال البرانس ، وأن الحضارة الأندلسية - رغم كل ما قيل ويقال - حضارة إيبيرية-أمازيغية-إسلامية . وهذه هي الحقيقة التي لا يمكن طمسها رغم كل المحاولات القوية التي استخدمت ذلك إلى اليوم .

تلك بعض الأمثلة السريعة أوردناها لتنبيه الغافلين ولفضح المزورين ، ولإعادة الحق إلى أصحابه . وهي دليل على أنه أصبح من الضروري إعادة كتابة تاريخنا ، وتحريره من التوجيه الذي يلغي بشكل سافر دور الشعب الأمازيغي في صنع تاريخه وثقافته . إنها لأكبر عملية تزوير عرفها تاريخ الإنسانية المعروف .

إن أول ما ينبغي التحرر منه هو هذا الإدعاء الذي أصبح - مع كامل الأسف - متمكنا في عقول الكثير من مواطنينا ، إلى حد أصبح مقبولا كبديهية ، يصعب الشك فيها ، هذا الإدعاء يتلخص في اعتماد بعض التشابه الموجود في أشكال العمارة الأمازيغية وغيرها في مناطق معينة ، لاثبات أن الأمازيغيين أتوا من تلك المناطق ! والغريب في الأمر هو أن لا أحد يفترض العكس . مع أنه ممكن ، بقدر ما تظهر استحالة الادعاء المتمسك المذكور . فالعمارة الأمازيغية عمارة متميزة رغم التشابه الموجود في هذا المجال - وفي مجالات أخرى - بين كل مناطق حوض البحر المتوسط . ومن الخطإ الفادح الاعتماد على هذه الظاهرة لتأكيد تنقل شعب مّا برمته من منطقة إلى منطقة ، خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بالشعب الأمازيغي الذي عرفه التاريخ ببلاده الحالية أي شمال إفريقيا ، قبل أن يعرف التاريخ تلك المناطق التي يُزعم أنهم جاءوا منها .

ومن الأمور الأخرى التي ينبغي التحرر منها هذا الاغفال المقصود لاسم الامازيغ حينما يتعلق الأمر ببلادهم وتاريخهم وحضارتهم وحاضرهم ... إن الأمر ليس قليل الاهمية ، كما قد يتبادر الى الذهن ، لأن الناس ليسوا كلهم علماء او اختصاصيين حتى يعرفوا الحقيقة ولو لم يُشَر إليها باسمها . إن الناس لايتذكرون إلا ما يردد يوميا على أعمدة الجرائد وأمواج الاذاعة والتلفيزيون ودردشات المقاهي ، وذكريات بعض الدروس الموجهة ... بكلمة واحدة نقول إن الناس لا يحتفظون في ذاكرتهم ، كحقائق ثابتة إلا بالشائع الذي يثبته التكرار اليومي المقصود في كل المجالات وفي كل المناسبات في حين نلاحظ ، ويلاحظ الجميع أن الاسم الأمازيغي غائب بالمرة . فلو أمكن إجراء احصاء لعدد المرات التي يذكر فيها هذا الاسم في السنة لأندهش الجميع للنسبة القليلة جدا او النادرة او المنعدمة - حسب المستويات - لهذه الكلمة .كل هذا واقع في بلد أمازيغي ، يسكنه شعب أمازيغي . الشعب الذي نسي اسمه ، إن لم يكن قد أضاعه ، الشعب الذي حرّم لغته وثقافته وهويته ، وآلى على نفسه ان يمحو اسمه .

إن أسماء كل شعوب العالم تذكر في أجهزة الاعلام الوطنية ، والدراسات المتنوعة ، ويغني شعراؤنا المستلبون باسماء شعوب أخرى ، وينشدون انتماءهم إلى غيرنا ... إلا اسم الشعب الأمازيغي ، فلا ذكر له . ولا أحد من أبنائه يغني انتماءه إليه . لا أعتقد أن في العالم اليوم شعبا بلغت فيه درجة المسخ ما بلغته في هذا الشعب المسكين .

ولكن أول ما ينبغي أن نتحرر منه هو مركب النقص العميق الذي غرس بوسائل مختلفة أهمها التعليم ووسائل الإعلام المختلفة ... ومركب النقص هذا - الذي نعتقد ان تخلصنا منه سيتم بادعاء انتماء مزيف - هو بالذات الذي جعلنا نقبل هذا المحو الكامل لاسمنا كشعب . وهو بالذات الذي جعلنا نتجنب تسمية أشيائنا بأسمائها الحقيقية . وهو الذي سيمحونا كوجود ثقافي وحضاري وتاريخي في حالة استمراره . كما فعل الى حد الآن بالنسبة الى جزء كبير من الشعب الامازيغي .

إن كل ما أشرت إليه - وهو قليل من كثير - هو سبب الإعتقاد الشائع لدى الناس بأن الثقافة المغربية ليست ثقافة أمازيغية ، وهو سبب هذا الإندهاش وذلك الاستغراب الذي يواجهك به كل مغربي أطلعته على هذه الحقيقة المنسية : الطابع الأمازيغي لكل ما يوجد في وطننا .

إن الأغلبية الساحقة من المغاربة ، ومن المثقفين المتعلمين بصفة خاصة لا يشكون فيما تلقوه من ازدراء واحتقار لأصولهم الأمازيغية . ولا يشكون بالتالي في أن الأمازيغيين ليست لهم حضارة . ويؤمنون أن شعوبا معينة هي التي حضرتهم بعد أن كانوا " همجا يدينون بديانة المجوس وعبدة الأوثان والجن والأشجار والحيوانات والأجرام السماوية ..." وكأن الشعوب الأخرى - بما فيها تلك التي حضرتهم زعما - لم تكن كذلك . ورغم أن كل المدن المغربية القديمة منها والحديثة من بناء الأمازيغيين . ورغم أن تقنياتنا الزراعية والصناعية لم يثبت أن شعبا خارجيا جاء إلينا وعلمنا إياها . ورغم أن تنظيماتنا الإجتماعية والقانونية لم يثبت أن

مجموعة "متحضرة" أرسلت تقنييها الى قرانا في الجبال والسهول والواحات لتلقنها لأجدادنا البعداء. ورغم أن موسيقانا ورقصنا أحسن بكثير مما نراه اليوم عند تلك الشعوب التي يزعم أنها تحضر غيرها . ورغم أن صناعاتنا التقليدية المختلفة تعتبر اليوم من أجمل الصناعات المعروفة ومن أكثرها إتقانا وتميزا ...

إن اللائحة طويلة ومع ذلك فالمعزلة مستمرة !!!

مقال نُشر بمجلة AWAL عدد 2 1986 ص ص 121- 141